روايات الهلال

النهايات

عبد الرحمن منيف

REWAYAT AL-HILAL
No. 453 - SEPTEMBER 1986



روايات الهلال

REWAYAT AL - HILAL

تصدر عن موسسه دار الهلال

العدد ٤٥٣ ـ سبتمبر ١٩٨٦ ـ محرم ١٤٠٧

No. 453 – SEPTEMBER 1986

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : موسى عبد

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى
والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

سعار البيع فى البلاد العربية للاعداد العادية من سلسلة روايات الهلال فئة ٧٥ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ١٨٠٠ ق س لبنان ١٨٠٠ ق ل . الاردن ٥٠٠ فلس . الكويت ٤٠٠ فلس . العراق ١٦٠٠ فلسا . السعودية ٧ ريالات . تونس ١٦٥٠ مليما . الخليج ١٢٠٠ فلسا . الصومال ١٣٠ سى لاجوس ١٢٠ سى . عدن ١٤٤ سنتا لندن ١٥٠ سنتا انبا ٢٠٠ دراخمه كندا ٥٠٠ سنت . البرازيل ٦٠٠ سنت استراليا ٦٠٠ سنت السودان ٢٥٠ ق سودانى . المغرب ١٥٠٠ فرنكا . غزة والضفه ٧٥ سنتا داكار ١٠٠٠ فرنك . اليمن السماليه ١٥ ريال ايطاليا ٣٠٠٠ لبرة

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعه خطوط

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

النهايات

تأليف

عبد الرحمن منيف

دار الهلال

على نحو من الانحاء ، فاجأ عبد الرحمن منيف قراء الرواية العربية بعمله الاول « الاشجار واغتيال مرزوق » فى ۱۹۷۳ : كان العمل ذاته أحد وجهى المفاجأة : رواية صلبة متماسكة ، مكتوبة بلغة تبدو محايدة ، لكنها محددة ونفاذة ، لا ثرثرة فيها ولا تزيد ، بل الحاح لتوصيل حقيقة تحمل مذاق الصدق الجارح : خلال لقاء عابر فى رحلة قطار يقطع ارضا عربية ـ عن عمد لا يسميها الكاتب ـ يلتقى رجلان ، ومع الليل والحركة الرتيبة وكئوس العرق ، ومثل قطين اليفين ، يتقاربان ، فيتقاسمان الطعام والشراب وخبرات الحياة والرواية ـ بعد ـ هى هاتان الشخصيتان ، عليك ـ بعد أن تفرغ من قراءتهما ـ أن تعيد ترتيب التفاصيل كى تتكامل أمامك صورة كل منهما .

الوجه الثانى للمفاجأة كان الروائى نفسه : قيل عراقى ، وقيل شامى ، وقيل ـ وهو الصحيح ـ انه من قلب الجزيرة العربية ، خرج للعالم الواسع ، فشرق وغرب ، ودرس حتى حصل على الدكتوراه فى اقتصاديات النفط ، وكان يعمل آنذاك فى مجال دراسته ، وكتب روايته الاولى وقد تجاوز الاربعين « عبد الرحمن من مواليد ۱۹۳۰ » .

وبعد « الاشجار .. » تتابعت الاعمال ، ولعل أشهرها عند قارئيه « شرق المتوسط ، ١٩٧٥ » : صرخة ممرورة وغاضبة فى وجه التعذيب الذى يلقاه معارضو نظم الحكم فى السجون والاقبية والزنازين والدهاليز ، فى تلك المنطقة الواسعة المترامية من الشواطىء الشرقية للمتوسط حتى حافة الجزيرة العربية . ثم « سباق المسافات الطويلة ، ١٩٨٠ » التى ارتحل فيها بالرواية العربية الى أرض ايران الثائرة فى مطلع الخمسينيات ، وقدم لنا ـ لا من خلال لغة التقارير والسرد البارد للاحداث ، بل على طريق شخصيات ايرانية وبريطانية وأمريكية اكتملت لها أسباب الحياة والاقناع ـ انتفاضة الشعب الايرانى بقيادة وصدق ، لاستعادة ثروته المنهوبة وحقه

الضائع ، ثم تحالف قوى الثورة المضادة في الخارج والداخل لاجهاضها .

ومنذ بداية الثمانينيات غاص عبد الرحمن منيف ــ العربي الخارج من قلب نجد ــ في « مدن الملح » ، لتحقق مشروعا روائيا طموحا ، ذا أهمية قصوى في وجودنا العربي المعاصر ، أعني التحول من مجتمع البداوة لمجتمع النفط ، بكل ماصاحب هذا التحول ، ونتج عنه ، من تشنجات وتقلصات ومخاض اليم ، وأن يقدم « بانوراما » هائلة الاتساع ، اتساع تلك البادية التي كانت هادئة وساكنة تعيش مألوف حياتها بايقاعاتها الثابتة والمتجددة : دورات الصيف والشتاء ، مجيء القوافل ورحيلها ، خروج الابناء للعمل في المدن القريبة أو البعيدة ، كي يعودوا ــ بعد سنوات ــ بشيء من المال ، او لا يعودوا أبدا ، حتى جاء الغرباء ، وهددت فوق الارض الساكنة تلك الآلات الرهيبة ، بأناة وهدوء وتعمق ، يقدم الروائي عشرات الشخصيات والاحداث والتفاصيل ، ترسم كلها صورة مجتمع قديم اصيل تتخلخل قواعده ، ثم يتقوض ، وعلى انقاضه يقوم واقع جديد .

ينتهي الجزء الاول « التيه ، ١٩٨٤ » وقد امتد خط أنابيب النفط من « وادي العيون » حيث الابار ، الى « حران » حيث المصافي وميناء التصدير ، وبعد ان انتهت أول انتفاضة قام بها العمال واهل حران ضد الشركة الامريكية وسلطة الامارة المتواطئة ، نتيجة شروط العمل القاسية ، والاذلال والمهانة التي يلقاها العرب من الامريكيين ورجال الامارة . وينتهي الجزء الثاني «الاخدود، ١٩٨٥» وقد تأسست الدولة وقامت في « موران » بأجهزتها وجيشها وادوات قمعها واعلامها وبعد أن وقع اول « انقلاب سياسي » وتمثل في عزل السلطان خزعل وتولية أخيه الامير فنر سلطانا للبلاد .

ولا يزال عبد الرحمن منيف عاكفا في منفاه الاختياري : باريس على إكمال الجزء الثالث والاخير من مدن الملح « تقاسيم الليل والنهار » والذي يصفه بأنه سيكون « رحلة مفتوحة في الزمان والمكان .. أو هو التفكير بصوت عال في هموم الحاضر ، لاجتناب مصاعب المستقبل » (٥) .

***

و « النهايات » ١٩٧٧ ، هي رواية البادية بامتياز ، شهادة بدوي

يعرف الصحراء والمواسم والخصب والمطر والجفـاف والقحط والحيوان والطير ، يتشمم رائحة الغيم ويتعرف على نذر العاصفة ، ويعيش مع اهل قريته - هي دائما ذات القرية التى تقع على حـافة الصحراء - متمثلا اماطلها الثقافية واصفى قيمها . ويتفرد «عساف» كنموذج بدوى للصياد : هو اعرف اهل القرية بمواسم الصيد واماكنه وطرائقه ووسائله ، لكن الاهم ان يعرف وظيفته ودوره فى الابقاء على حياة الجماعة حين يهددها القحط والجوع . مرة واحدة انفجر فى اهل الطيبة ، وقال فى وجوههم ماكان يجب ان يقال : « قلت لـكم الف مرة .. لم يبق بيننا وبين الموت الا ذراع ، وهذه الذراع هى الصيد الذى نستطيع ان نوفره حتى تأتى الامطار مرة اخرى .. قلت لكم مئات المرات وانتم لا تسمعون هذا الكلام .. وبدل ذلك تزدادون حماقة يوما بعد يوم .. » ، وقال لهم ايضا : « لم يخلق الصيد للاغنياء أو للذين يقتلهم الزهق والشبع .. لقد خلق للفقراء ، وللذين لا يملكون خبز يومهم .. وعساف الذى قضى حياته كلهـا فى البرية لا يصيد فى مواسم الخير الا ما يملأ معـدته .. اما فى مواسم الجفاف ، ولكى لا يموت الناس فى الشـوارع فيمكن أن يكون الصيد حلا ... »

لكن هذه الكلمات ، غاضبة الصدق ، لم تثن سامعيها عن التلهى بالصيد ، فخرج عساف معهم .. ليموت دونهم .

أما السهرة التى قضاها أهل الطيبة ، وجثة عساف مسجاة بينهم ، فقد جاءت حكاياتها كلها تنويعات وتفريعات على العلاقة بين الانسان والحيوان والطير ، وهى - من الناحية الاخرى - تنويعـات على لحن النهاية : نهاية البشر والحيوانات .. حتى الاشجار . ولان عسـاف كان - كما يصف المختار الذى احس ، اكثر من غيره ، دلالة حيـاته وموته - « عساف الحصان ، الغيمة ، ابو الفقراء ، الذى لا ينـام ساعة فى الليل من اجل ان تعيش الطيبة وتبقى .. » .. بـكلمات اخرى : لانه كان الفرد الذى يتمثل افضل قيم الجماعة ، ويتقدم - ساعة الخطر - ليفديها ، فقد خرجت الطيبة كلهـا فى وداعه ، حتى النساء : « تجمعت النسوة على شكل دائرة ، وبطريقة تختلط فيها كل مظاهر الحزن والفرح واللذة والجنون والغضب ، وبحـركات ادائية لا يتقنها الا من احترفها لفرط ماتعود عليها ، بدأت الرقصـة

منتظمة موزونة ، وكانت الصرخات ترافقها وتعطيها انتظاما أدق ووزنا اوضح .. »

ليس هذا فقط ، بل ان موت عساف جاء انبثاقا لصحوة أهل الطيبة ، ولان يفعلوا شيئا بدل انتظار الموت : سيمضون مباشرة الى المدنية ، كي يطالبوا بانشاء السد الذي يعني الحياة لقريتهم ، والا، يقول المختار : « ان اعود الى الطيبة مرة اخرى آلا لاحمل بندقية وابقى في الجبل ، ومن هناك ، ومع الاخرين سوف نعمل شيئا كثيرا غير الصيد .. »

وثمة صلات قربى بين عساف وآخرين من ابطال عبد الرحمن منيف ثمة صلة بينه وبين الياس نخلة عاشق « الاشجار » ، كان الياس يوما يمتلك اشجارا ، لكنه في ليلة قامر عليها فخسرها ، وتلك لغته الحقيقية : قامر بالطبيعة التي لا يمتلكها أحد ، وحين اقتلعت الاشجار من قريته أحس بأن جذوره قد اقتلعت معها ، كانت الاشجار في عالمه تعني الخصب والنماء ، مياه الآبار وزخات المطر ، الظل والتجدد ، الاطفال والامهات والنساء والثمر . وماذا يفعل من أضاع اشجاره في هجير قريته الصغيرة « كان اسمها الطيبة كذلك » ؟ .. ضياعا بضياع ، خرج الياس الى المدينة الكبيرة يضيع فيها .

وثمة صلة اخرى بينه وبين مفضي الجوعان : واحد من اكثر شخصيات « التيه » استدارة واكتمالا ونفاذا الى القلب ، مثله كان مفضي الفرد ـ النموذج ، ومثله كان « ابا اليتامى ، وملبى الحاجات» ومثله أيضا كان « يقتفى اثر الارانب والوعول ، ويرجع ، اغلب الاحيان ، بحصيلة يعجب الكثيرون كيف تمكن من جمعها ، وهذه الحصيلة يوزعها بنفس طيبة ، حتى ان كثيرا ما يبقى صفر اليدين ، ولا يذوق شيئا مما جمعه بنفسه .. » ، ومثله ايضا قال الكلمات التي يجب أن تقال ، وقدم حياته ذاتها تدليلا على صدق كلماته ، ومثله أخيرا : احتضنت الجماعة ابنها الذي من قلبها خرج ، واصبح رمزا لاصفى قيمها وممارساتها ، واعادته الى قلبها من جديد ، لينحول الى اسطورة حية ورائعة .

وعلى مستوى آخر يلتقي غساف مع الفكرة الرئيسة التي وربما كانت الدافع وراء تخطيط مشروع « مدن الملح » : فاهل هذه المدن ، مثل اهل الطيبة ، لم يستطيعوا التوازن مع الطبيعة ،

ومصادرها والتعامل معها واحترام قوانينها ، هذا مافعله ـ ويفعله ـ أهل « مدن الملح » بالنفط ، وهذا ما فعله أهل الطيبة بالطير والحيوان .

في رسالة خاصة كتب عبد الرحمن منيف عن القاهرة ، المدينة « التي احبها بجموح » . والتي كانت نقطة انطلاقه للعالم الواسع بعد أن قضى فيها عامين مثقلين بالاحداث ، في تاريخه وتاريخ المدنية : ١٩٥٧-٥٦ .

و « النهايات » العمل الاول الذي يصدر للروائي العربي الكبير عن المدينة التي أحبها بجموح ...

فاروق عبد القادر

انه القحط ٠

القحط ٠٠ مرة أخرى !

وفي مواسم القحط تتغير الحياة والاشياء ٠٠ حتى البشر يتغيرون ٠٠ وطباعهم تتغير ، تتولد في النفوس أحزان تبدو غامضة أول الامر ، لكن لحظات الغضب ، التي كثيرا ما تتكرر ، تفجرها بسرعة ، تجعلها معادية ، جموحا ، ويمكن أن تأخذ أشكالا لا حصر لها ، أما اذا مرت الغيوم عالية سريعة ، فحينئذ ترتفع الوجوه الى أعلى وقد امتلأت بنظـــرات الحقـد والشتائم والتحدى !

٠٠٠ وحين يجيء القحط لا يترك بيتا دون أن يدخله ، ولا يترك انسانا الا ويخلف في قلبه أو في جسده أثرا ٠ واذا كان المسنون قد تعودوا ، منذ فترة طويلة ، لفرط ما مر بهم من أيام قاسية ، على سـنوات المحل وعضة الجوع ، وكانت المخاوف تملأ قلـــوبهم حين يفكـرون فيهـا ، فالكثيرون غيرهم لا يقدرون على مواجهتها بالتصميم نفسه ، لان الكميات القليلة من الحبوب التي توضع جانبا ، باصرار قوى أول الامر ، لتكون زادا في أيام الجوع ، لا تلبث أن تتسرب أو تختفي ، كما يتسرب ماء النبع أو كما يجف المجرى ، وتبدأ بعد ذلك محاولات البحث المضني عن خبز اليوم ، وخلال هذا البحث تتراكم الاحزان والمخاوف لتصبح شبحا مرعبا تظهر آثاره في وجوه الصـــغار ، وفي سـهوم الرجال وشتائمهم ، وفي الدموع الصغيرة التي تتساقط من عيون النسـوة دون أسباب واضحة ٠

٠٠٠ انه القحط مرة أخرى ، وها هو يسوق أمامه أشـياء لا حصر لها ولا يعرف أحد كيف تتجمع هذه الاشياء وكيف تأتي ، فالفلاحون الذين كانوا يحملون سلال البيض وينزلون بها الى أطـراف المدينـة ، ويتجرءون بعض الاحيان ويصلون الى وسط الاسواق المليئة بالبشر ، والرعاة الذين كانوا يأخذون أجر سنة كاملة بضـعة خراف ، وكانوا يسوقونها في بداية فصل الربيع ، ومعها الحملان الصـغيرة ، وكانوا يضعونها على صدورهم لانها ولدت لتوها ، لكي يبيعوها في المدينة ، ثم أولئك الباعة الماكرون الذين يحملون على دوابهم العنب والتين والتفاح ،

ويحملون موازينهم البدائية ومعها قطع الحجارة المصقولة التي تعودوا استعمالها أوزانا ، ويبالغون أول الامر في الاسعار التي يطلبونها ...
ان كل هؤلاء اذا جاءوا في مواسم القحط يجيئون بهيئات مختلفة شديدة الغرابة : كانت ملابسهم ممزقة وغريبة الالوان ، وعيونهم مليئة بالحزن والخوف ، أما أصواتهم القوية الصاخبة فكانت تنزلق الى الداخل ، وبدلا منها تخرج من الصدور أصوات غير واضحة ، حتى انهم كانوا يضطرون الى اعادة ما يقولون بضع مرات ، بناء على الاسئلة الفظة التي يوجهها لهم أصحاب الدكاكين في المدينة ، والذين لم يكونوا ينظرون الى وجوه هؤلاء الناس قدر ما ينظرون الى الايدى أو الى تلك الصرر الصغيرة المربوطه باحكام في أطراف الملابس التي يضعونها على أجسادهم أو على رءوسهم . وكان هؤلاء اذا جاءوا في مثل هذه السنين لا يبيعون البيض والفاكهة والزيتون والخراف ، وانما يحاولون شراء أقصى ما تسمح به نقودهم القليلة من الدقيق والسكر . حتى الرعاة الذين كانوا شديدى النزق ويبالغون في المقابل الذى يطالبون به ثمنا للخراف ، كانوا يفضلون العودة مرة أخرى ومعهم دوابهم ، دون شعور بالاسف لانهم لم يبيعوا ولم يشتروا ـ حتى هؤلاء يتحولون في مثل هذه السنة الى رجال مترددين متوسلين ، لانهم يريدون التخلص من الدواب الضعيفة المسنة ، اذ أصبحوا يخافون خوفا حقيقيا أن تموت بين لحظة وأخرى من الجوع والعطش .

أما الباعة الذين تعودوا المجيء في كل المواسم ، حاملين من كل موسم ثماره ، وبعض الاحيان للتجول والفرجة ، فلم يعد أحد يراهم يحملون شيئا في هذه المواسم ، وكأنهم مجموعة من القنافذ تكورت وهربت أشياءها الى باطن الارض !

لو اقتصر الامر على هذه المظاهر لما أثار استغرابا ، لان العلاقة بين المدينة وما يحيط بها هي من القوة والاستمرار بحيث لا يمكن لاحد أن يميز بسرعة التغير المفاجيء الذى أخذ يتكون ، لكن مع تلك المظاهر كانت أشياء أخرى كثيرة تحصل : فالتجار الذين تعودوا على تقديم القروض الصغيرة للفلاحين ، واستيفائها اضعافا مضاعفة في المواسم ، اتخذوا موقفا ، بدا أول الامر ، مليئا بالشروط والتعنت ، ثم ما لبثوا أن امتنعوا تماما ، وافتعلوا لذلك أسبابا وخصومات . أما الذين استمروا في تقديم بعض المساعدات ، فقد رفضوا أن يكون سدادها في المواسم القادمة ، وأصروا على شروط جديدة : أصروا على أن تسجل أقسام كبيرة من الاراضي التي يمتلكها الفلاحون باسمائهم وأسماء

ابنائهم • وفي محاولات لاثبات حسن النية قالوا الكلمات التي يقولها الدائنون دائما : « الدنيا حياة وموت ، والانسان لا يضمن نفسه في اليوم الذي يعيش فيه ، فكيف يضمن حياة أولاده الصغار بعد موته ؟ » كانوا لا يكتفون بذلك ، كانوا يضيفون : وكما قال الله عز وجل في كتابه الكريم : « اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل » •

والفلاحون الذين قابلوا اصرار هؤلاء الدائنين باصرار أقوى ، ورفضوا تسجيل الاراضي ، أول الامر ، اضطر الكثير منهم الى استخراج الحلي الذهبية والفضية القديمة ، والتي جمعت خلال فترات طويلة سابقة ، وقدموها عوضا عن الطحين والسكر وبعض أمتار من الخام • وفي وقت آخر وافق بعضهم على التنازل وقدم الاراضي والبساتين التي طلبها الدائنون ، ومع كل صفقة جديدة كانت أثمان الارض في القرى تتراجع ، وكان التجار يزدادون تصلبا ولا يوافقون الا بشروطهم ، وبعد أن تتم جميع الاجراءات !

ومع القحط تأتي أشياء أخرى أيضا : تأتي الأمراض الغامضة وتعقبها الوفيات • كان الكبار يموتون من الحزن ، والصغار تنتفخ بطونهم وتصيبهم الصفراء ثم يتساقطون • واذا كان الناس قد تعودوا على الموت ، ولم يعد يخيفهم كما كان الامر في أوقات أخرى ، رغم انه يتسبب كل الاوقات في تفجير آلاف الاحزان والاحقاد القديمة ، فان حالة أقرب الى الانتظار اليائس كانت تحوم فوق كل بيت وتسبح في دم كل مخلوق • حتى الدواب في حواكير البيوت ، أو في أطراف البساتين كانت تسيطر عليها حالة من العصبية واليأس •

وفي هذه السنين ، ومع الجوع والموت ، تأتي أفواج لا حصر لها من الطيور ، ومثلما كانت الغيوم الخفيفة العالية تمر مسرعة ، كذلك كانت الطيور ، فقد كانت أفواجها تعبر في كل الاوقات ، حتى في الليل العميق ، عالية صامتة ، وكأنها ذاهبة الى الموت أو الى مجهول لا تعرف متى أو أين سيكون •

كان الناس ينظرون الى الطيور نظرة مليئة بالحزن والاسى • تمنوا لو كانت قريبة ، أو لو تتوقف قليلا ، لعلهم يظفرون بعدد منها يعوضهم عن الجوع الذي يهدهم ، لكن الطيور تواصل طيرانها المتعب لعلها تصل الى مكان ما ، والناس لا يتوقفون عن النظر والحسرة ، ويتوقعون شيئا ما ، ولكن هذا الشيء لا يحصل أبدا ، لان أسراب الكركي والوز البري ، وعشرات الاسراب من الطيور الاخرى واصلت رحلتها المجهدة،

دون توقف • أما أسراب القطا والكدرى فقد بدأت تظهر بين فترة واخرى • والفلاحون الذين تعلموا ان هذا النوع من الطيور لا يترك أماكنه الصحراوية ، ويقترب من المناطق المزروعة ، الا اذا عضه الجوع وأضناه العطش ، ولم تعد واحات الصحراء أو الخوابى المتناثرة فى أماكن عديدة تحوى قطرة ماء ، فقد لاحظوا ان هذه الطيور بدأت تتخلى عن الحذر والخوف ، أول الامر ، مدفوعة بغريزة البقاء ، فتندفع الى أى مكان لعلها تلتقط بضع حبات أو قطرات من الماء •

انها المأساة نفسها تتكرر مرة أخرى أمام عيون الفلاحين ، وهم قد تعودوا الصبر والانتظار ، وتعودوا أكثر من ذلك أن يبدوا التشاؤم والتحفظ ، وكانوا يرددون اذا سئلوا عن المواسم والزراعة : « المواسم لا تعنى الامطار التى تأتي فقط ، وانما أشياء اخرى كثيرة » • فاذا حصلت لجاجة في السؤال كانوا يختصرون كل شيء بالكلمات التالية : « المواسم تعني ما يقسمه الله وما يتركه الطير » ، لانهم فى أعماقهم يخافون كل شيء ، يخافون انحباس المطر فى الشهور التى يجب أن يسقط فيها ، اما اذا جاء مبكرا ونما الزرع وارتفع شبرا أو شبرين عن الارض ، فكانوا يخافون أن يأتى مطر غزير بعد ذلك الانقطاع ، وعندها تغرق الارض وتنمو الاعشاب الطفيلية ويفسد كل شيء • فاذا جاء المطر هينا متفرقا ، وفى الاوقات التى يجب أن يأتى فيها ، فان الخوف يظل حتى الايام الاخيرة من ايار ، حين تشتد الحرارة فجأة وتحرق كل شيء ، فتخيب الآمال وتتراجع الوعود التى اعطاها الرجال للنساء بأثواب جديدة وللفتيان الذين تجاوزوا سن البلوغ واصبحوا يطمحون الى الزواج ان جاءت المواسم الجديدة بالخير ، ان هذه الوعود تتراجع يوما بعد آخر لان « الشوبة » جاءت وقضت على كل شيء !

ان أحدا لا يحب أن يتذكر أيام القحط ، اما اذا جاءت قاسية جارفة ، واذا تكرر مجيئها سنة بعد أخرى ، فالكثيرون يفضلون الموت أو القتل ثم الرحيل على هذا الانتظار القاسى ، وآخرون يندفعون الى حالة من القسوة والانتقام لا يتصورها أحد فيهم ، بل ويستغربها هؤلاء الناس انفسهم في غير هذه الاوقات ،وفي غير هذه الظروف• واذا كان الانسان لايستطيع أن ينتقم من الغيوم أو ممن يرسلها ، فلابد أن تكون هناك ضحايا من نوع آخر • فالازواج الذين ابدوا من السماحة الشيء الكثير ، ولم يتعودوا الشتيمة أو الضرب ، كانوا مستعدين لان يغيروا هذه العادات بسهولة ودون شعور بالذنب ، كانوا لا يترددون فى أن يضربوا ويصرخوا لاتفه الاسباب • والذين كانوا يبدون المرح ويظهرون التفاؤل،

يتحولون فجأة الى رجال قساة بوجوههم وتصرفاتهم ، وحتى أولئك الذين كانوا شديدى الايمان ويعتبرون كل ما تأتى به السماء امتحانا للانسان لا يلبثون أن يصبحوا ضحايا واكثر الناس شـــتيمة وتجـديفا ، حتى ليستغرب من عرفهم من قبل كيف كان هؤلاء النـاس يخــزنون فى صدورهم هذا المقدار الهائل من الشتائم والافكار الخاطئة المحرمة !

هكذا كان القسم الاكبر من الناس فى تلك السنة القاسية الطويلة ، واذا كان لكل قرية ولكل مدينة فى هذا العالم ملامحها وطريقتهـــا فى الحياة ، ولها اسماؤها ومقابرها ، واذا كان لكل قرية ومدينة مخاتيرها ومجانينها ، ولها نهرها أو نبع الماء الذى تستقى منه ، وفيها مواســم الاعراس بعد الحصاد ، فقد كان للطيبة أيضا حيـاتها وطريقتهـــا فى المعاش ، وكان لها مقبرتها وأعراسها ، وكان فى الطيبة مجانينها أيضا ، لكن هؤلاء المجانين لا يظهرون دائما ولا يتذكرهم الناس في كل الاوقات ، وان كان لهم حضورهم وجنونهم الخاص ، بحيث كانوا كبــارا واقوياء في أوقات معينة ، وكانوا حمقى وشديدى الغرابة فى أوقات أخرى .

وكان للطيبة دائما أعراسها وأحزانهـــا . كانت الاعـراس ، أغلب الاحيان ، بعد الحصاد ، وكانت الاحزان حين ينقطع المطر وتمحــل الارض . واذا كانت الاعراس تعنى بعض الناس ، ولبعض الوقت ، فان الاحزان ، وفي سنوات المحل ، تعنى جميع الناس . وتمتد فترةطويلة .

الطيبة ، مثل أى مكان فى الدنيا ، لها اشياؤها التى تفخر بها ، قد لا تبدو هذه الاشياء خطيرة ، أو ذات أهمية بالنسـبة لاماكن أخـرى ، لكنها بالنسبة للطيبة جزء من الملامح التى تميزها عن غيرها من الضيع والقرى • وهذه الاشياء تكونت بفعل الزمن ، وبفعل الطبيعة القاسية ، كما لم يحصل فى أماكن أخرى • فاذا كانت الاصوات العالية تميز سكان عدد كبير من القرى ، حتى لتبدو أصوات الفلاحين عالية الجرس صلبة المخارج ، وبعض الاحيان سريعة ، وتتخللها مجموعة من الحكم والامثال كما هى العادة لدى الكثير من الفلاحين فى أنحاء عديدة من العالم ، نظرا للعادة وللمسافات التى تفصل الناس عن بعضهم فى الحقول ، أو حين يضـطرون للمناداة على الحيوانات الضـالة ، أو على تلك التى تذهب بمزاجها الغريب الى أماكن بعيدة أو مجهولة ، أو ربما للبعد الذى يفصل البيوت عن بعضها ، وما يحيط بها من الحواكير والبساتين الصغيرة التى تزرع فيها أنواع عديدة من الخضروات •• ان هذه الاسباب ، وغيرها كثير ، خلقت طبيعة معينة ، وجعلت الناس فى الطيبة يتكلمون بطريقة خاصة ، حتى ليظن من يسمع الحديث ولا يفهم طبيعة الناس أو علاقاتهم ، انهم يتعاركون ، أو ان الخلاف بينهم وصل الى درجة من الحدة ، لابد أن تعقبه أمور أخرى !

لو اقتصر الامر فى الطيبة على ذلك لما عنى شيئا ، خاصة بالنسبة للفلاحين أو الذين يعرفون طباعهم ، لكن اذا ترافق مع ذلك النسـق الخاص من الحديث الذى تعوده أهل الطيبة ، حيث يلجئون فى أكثر الاحيان الى الاستطراد والتذكر ، ويسرفون فى رواية القصص والتاريخ ، لولا هذه الصفة لما ظهرت تلك الطبيعة الخاصة ،ولما ظهرت تلك الخشية التى تميز البشر فى ذلك المكان ، وما يحيط به من قرى وضياع ، وقد تصل الى المدينة ، أو بعض أطرافها أيضا •

كان أهل الطيبة يعرفون كيف يديرون الحديث بتلك الطريقة العجيبة التى تجعل الامور ذات أهمية شديدة ، وهذه الميزة التى يتوارثها الابناء عن الآباء ، تجعلهم فى نظر الكثيرين نوعا خاصا من الناس ، وتجعلهم أكثر من ذلك قادرين على التاثير فى الآخرين ••• وربما اقناعهم • ولا

يمكن تفسير هذا الامر على انه ضرب من الاحتيال أو التملق ، كما لا يمكن أن يعتبر دليلا على نزعة شريرة ، ولكنها العادة بتكرارها الدائم ، ثم تلك الليالي الطويلة ، ليالي السمر والاحاديث السائبة ، ثم التحديات ، وما تجر اليه ، وليالي الصيف أو الشتاء ، في البيادر أو الى جانب النبع ، وحول المواقد • لقد كانت تجرى الاحاديث سريعة شـجية واقرب ما تكون الى الحلم • وكان الذين لا يحسنون المشاركة في أحاديث من هذا النوع ، لا يلبثون أن يصـبحوا بشرا مختلفين اذا وجـدوا بين أناس آخرين ، عندئذ يبدءون باعادة ما سمعوا ويرددون القصص التي رويت في الطيبة ، ثم يضيفون اليها ما شاءوا من الخيال ، فتبدو وكأنهـا أقرب الى الذكاء والمهارة فتثير من الاعجاب بمقدار ما تثير من الحسد •

وابن الطيبة ، كبيرا كان أم صغيرا ، يعرف كيف يسمع ، وان كان الصغار ، بشكل خاص ، أكثر قدرة على الاصغاء ، ولربما رددوا فيما بينهم أو في أنفسهم ، ما سمعوا مرات كثيرة ، حتى تترسخ في الذاكرة الاشياء فلا تضيع ولا تنسى ، يضاف اليها أفكار وأمثال ترد عفو اللحظة وتمليها الظروف الطارئة التي يواجهونها • انهم يلجئون الى ذلك كله لكن تبدو احاديثهم اكثر تشويقا واكثر أهمية !

والطيبة التي تعتمد على المطر والزراعة ، وعلى ذلك الشريط الضيق من الارض الذى ترويه العين ، تحس في أعماقها خـوفا دائما أن تأتي سنوات المحل ، واذا كانت تستعد لذلك بحرص شديد ، بتربية بقرة أو اثنتين في كل بيت ، وبتربية عدد من رءوس الغنم ، فانها في سنوات المحل لا تستطيع أن تطعم ابناءها ، ولذلك تسرف فيما تعطى للرعاة ، وتحاول أن تتخلص من الدواب الباقية بذبحها أو بيعها • ورغم ان عدد الرعاة في الطيبة أقل بكثير من القرى الاخرى ، فان رعاتها من البراعة بحيث يحسدهم الكثيرون ، فالراعي الذى يسرح بغنم عشرة بيـوت ، ويعرف كيف يتصرف في كل الفصـول ، والى أين يذهب •• هـذا الراعي ، رغم غيابه الطويل في الفلاة ، يظهر فجأة في سنوات المحل ، ويمتلك دالة على أصحاب الغنم السابقين ، بحيث ينام ويقوم في أى بيت يريد دون شعور بالحرج أو التردد • أما المزايا الخفية التي يمتلكهـا الرعاة ولا تظهر للناس في المواسم الجيدة فلا تلبث أن تظهر في سنوات القحط ، فهم يرابطون في مداخل القرية ، ويتحـول قسـم منهم الى الصيد ، لكن العادات التي اكتسبوها في الرعى لا تفارقهم • وأهل الطيبة الذين يمتازون بقدرة خارقة على الحديث ، يدركون ان الرعاة فقدوا هذه الميزة لكثرة ما عاشوا مع الحيوانات في البراري ، لكنهم يعرفون كيف

يستطيع هؤلاء أن يتجاوزوا الصمت بتلك الاغاني العجيبة التي يرددونها في الفلاة • ويعرفون أيضا كيف يستعملون تلك الآلات الخشـــبية ، والتي لا يحسن استعمالها غيرهم ، في مواسم الاعراس والحصـــاد •• وربما في حالات الحزن أيضا •

بهذه الطريقة ، وبمعرفة الاماكن التي تعيش فيها الحيوانات ، يصبح الرعاة في مواسم الجفاف أناسا لا غنى عنهم ، لكنهم أغلب الاحيان لا يتقنون الصيد وليست بينهم وبين الصيادين مودة • فهم لا يتخلون عن الغناء أو عن تلك الآلات الشيطانية ، كما يحب المسنون أن يسموها ، ويحتالون كثيرا من أجـل ابداء براعتهم في كل الاوقات ، خاصـة اذا تجمع الناس ، وكانت هناك ضرورة من نوع ما !

- ٣ -

الطيبة بداية الصحراء : من ناحية الشرق البساتين والنبع والسوق بعد ذلك ، وعند الافق ، تبدأ سلسلة الجبال ، ومن ناحية الشمال والغرب تمتد سهول فسيحة ، يتخللها بين مسافة واخرى بعض الهضاب ، وهذه السهول تزرع بانواع كثيرة من الحبوب • كانت تزرع بالحنطة والشعير والكرسنة والبرسيم وبعض أصناف البقول ، وفي الاماكن القريبة من البلدة ترتفع مساكب الخضرة ، قريبا من الاشجار المثمرة • اما من ناحية الجنوب فكانت الارض تنسحب تدريجيا ، وتخالطها الحجارة الكلسية ، وتبدأ تفقر ذراعا بعد آخر حتى تتحول في بداية الافق الى كثبان رملية ، وبعد ذلك تبدأ الصحراء •

في المواسم الجديدة تخضر الطيبة وتعبق من كل جهاتها ، وتمتلئ بالورود والنباتات العجيبة الالوان والاشكال في بداية الربيع ، حتى الجهة الجنوبية التي تبدو أواخر الصيف متجهمة قاسية ، لا يعرف الانسان ولا يستطيع أن يفسر كيف كانت قادرة على أن تقذف من جوفها كل هذه الكنوز ، وكيف كانت تشد أهل الطيبة في بداية الربيع لكي يذهبوا افواجا لالتقاط الثمار العجيبة المخبوءة في بطن الارض ، وما يخالط ذلك المهرجان من الذكريات عن ايام كانت فيها الحياة أكثر روعة وخصبا • ان هذه البلدة تتصف بمزايا وصفات ليست متاحة لكثير من القرى المجاورة • حتى الرعاة الاغراب الذين كانوا يحلمون بالوصول الى المراعي الخصبة ، لا يجرءون على الاقتراب كثيرا من مراعي الطيبة ، ولا يتجاوزون حدا معينا ، لانهم يعرفون طباع أهل الطيبة وما يتصفون به من حدة ، وما قد يرتكبونه من حماقات ان اعتدى غريب على رزقهم أو حياتهم •

هذه الامور يعرفها ويتصف بها كل من عاش في الطيبة ، ويعرفها أيضا الذين عاشروا أهلها • واذا كانت بعض القرى قادرة على أن تقذف من جوفها أبناء كثيرين ، وترميهم في انحاء الارض كلها ، وتفقد بعد ذلك كل صلة بهم ، فان الطيبة تختلف كثيرا ، لانها تولد في نفوس أبنائها حنينا من نوع لا ينسى ، وحتى الذين سافروا وابتعدوا كثيرا ، كانوا يرددون دون انقطاع اسم الطيبة ، ويحنون الى ايامها الماضية ،

ويتمنون لو عادوا اليها ذات يوم ليعيشوا ما تبقى لهم من العمر .
والذين لا يذهب بهم التفكير والخيـال هذا المذهب ، كانوا ينكرون بالعودة اليها بين فترة واخرى ، وهناك يقضون اياما جميلة ، ويتذكرون كل ما حصل في سنوات سابقة ، ويمرون على كل البيوت ، ويجلسون في مقهى السوق ومقهى النبع ، ويعبون الهواء بقوة وشهوة لعله يمنحهم قوة تمكنهم من مواجهة الايام المقبلة والاستمرار فى الحياة الجديدة التى بدأوا يحيونها في أماكن أخرى .

واذا كان الناس يفضلون ، في بعض الاوقات ، تذكر الايام الجميلة من الماضي ، فان الايام القاسية يصبح لها جمال من نوع خاص ، حتى الصعوبات التى عاشوها تتحول فى الذاكرة الى بطـولة غامضـة ولا يصدقون انهم احتملوا ذلك كله واستمروا بعد ذلك !

هذا الوفاء الذى يكنه أهـل الطيبـة لبلدتهم لا يقتصر على شيء دون غيره ، ولا يقتصر على المقيمين وحدهم ، فالذين سـافروا طلبا للرزق أو الدراسة ، وعاشوا فى أماكن بعيدة ، لا يكتفون بان يرسلوا الطحين والسكر والرسائل وبعض الحـاجات الاخـرى الى البلدة ، انهم يأتون لقضاء وقت غير قصير فى الطيبة أيضا ، خاصة بعد أن يعجزوا عن اقناع أقربائهم بالسفر اليهم .

صحيح ان هذه الفترات التى يقضونها في الطيبـة تسـبب لهم ألما عميقا ، وتولد في النفوس أحزانا لا يعرفون كيف يكتمونها ،خاصة حين يرون المياه وهي تشح وتكاد تنقطع من النبع ، ويرون المجرى وقد جف ، ثم يتملكهم شعور بالاختناق حين يسمعون أصوات الفئوس وهي تهوى على الاشجار الجافة ، فاذا اضيفت الى ذلك أخبار الذين رحلوا وغيبتهم الارض من الاصدقاء والاقرباء ، الصغار والكبار ، فان الحزن يتحـول الى حالة عصبية ، ويأخذ الحديث مجرى جديدا . ويبدأ القادمون ، رغم صغر سنهم ، يلومون الكبار ، ويوجهون لهم كلمات التقريع :

ــ قلنا لكم مئات المرات : هذه الارض لا تطعم حتى الجرذان وأنتم .. هنا ، تتشبثون بها ، وكأنها الجنة اتركوها . ارحلوا الى المدينة . هناك يمكن أن تجدوا حياة أفضـل من هذه الحياة التى تعيشـونها الف مرة !

وحين يصمت المقيمون ، خاصة من المسنين ، ويتطلعـون بحزن الى وجوه الذين يتكلمون ، يتراءى لهم ، للحظـات ، انهم لم يروا هـذه الوجوه ، ولم يعرفوها من قبل . ويتراءى لهم فىلحظـات أخـرى أن الكلمات التى يسمعونها قالها أناس غيرهم ، أو ان المدينة افسدتهم تماما

وجعلتهم يتكلمون مثل هذا الكلام • وتمتد في أذهان المسنين صور لا نهاية لها : صور الطيبة في كل الفترات ، حين كان ينبت العشب على الصخور وعلى أسطحة المنازل ، وحين كانت الينابيع تتفجر من كل مكان ، كانوا يتذكرون ذلك ويعبون أنفاسا عميقة وكأنهم يتنفسون رائحة الخصوبة تتولد من كل الكائنات ، ليس من البشر وحدهم ، وانما من الحيوانات والجماد • يتذكرون كل شيء ، ويتذكرون أكثر مذاق الاطعمة التي كانوا يأكلونها فيتحرك اللعاب في أفواههم !

ورغم ان الابناء الذين هجروا الطيبة منذ وقت طويل ، واستقروا في المدينة البعيدة ، لا يعنون ما يقولونه تماما ، أو لا يقصدون اليه ، فان تلك الصعوبات التي كثيرا ما تتكرر ، تحملهم على أن يقولوا كل شيء ، وتحملهم اكثر على أن يفكروا بهذه الطريقة • ومع ذلك ، وبالرغم منه ، فان هؤلاء في مواطنهم الجديدة لا يكفون عن ذكر الطيبة ، والحديث عن مزايا موهومة لا تتمتع بها أية بلدة أخرى في المنطقة كلها • كان هؤلاء الابناء لا يكتفون بالحديث ، فان تعلقهم بالطيبة يدفعهم في حالات كثيرة ، وفي لحظات الشوق المذكرة ، لان يعلوا أشياء لا حصر لها ولا تخطر ببال : كانوا يقيمون أفراحهم في الطيبة ، يجددون هذه الافراح في الطيبة ، يبعثون ابناءهم خلال فصول الصيف ، لكي يعيشوا مثلما عاشوا حين كانوا صغارا • وحين تأخذهم النشوة يدعون اصدقاءهم لقضاء بضعة أيام في هذه البقعة الرائعة : « في الطيبة السماء قريبة • شديدة الصفاء ، والليالي هناك مليئة بنشوة لا تجدونها في أي مكان آخر من هذا العالم • أما الفواكه • أما الالبان ، كالجبنة حين تكون طازجة ، والزبدة حين تقطف ، الدجاج والخراف الصغيرة وهي تشوى على نار الحطب •• هذه الاشياء واخرى غيرها في الطيبة ، لا يمكن أن يكون لها مثيل • ثم هناك الصيد • الصيد وفير ، فالحجل والارانب ، وحتى الحيوانات المتوحشة التي انقرضت في معظم البقاع ، يمكن ان توجد في بعض الاودية العميقة المحيطة بالطيبة • والينابيع الغزيرة • ان الينابيع ، اذا كانت أمطار تلك السنة وفيرة ، تتفجر من شقوق الارض ، وتتدفق من تحت كل صخرة ، ومياه هذه الينابيع باردة نقية ، حتى ان الانسان لا يشبع حين يشرب من تلك المياه » •

هكذا كانت تجري الاحاديث ، اما اذا جاءت فاكهة الطيبة الى المدينة ، في سلال صغيرة ، فكان هؤلاء الابناء لا يملون أبدا من تقليبها والنظر اليها ، كانوا يفضلون أن يقدموها الى ضيوفهم ، وان يتحدثوا عنها • اما اذا جرى الحديث عن أجبان المدينة وألبانها ، فكثيرا ما كانت وجوه

هؤلاء الابناء تتغير ، تمرق مثل ومضات خاطفة مظاهر القرف والذكرى في وقت واحد ، ويتصورون للحظات انهم غير قادرين على أن يتذوقوا شيئا من الطعام غير ذاك الذى يأتى من الطيبة !

أشياء كثيرة تتولد في النفوس ، في نفوس المقيمين والراحلين ، وهذه الاشياء من التداخل والتعقيد بحيث لا يستطيع أحد أن يفسرها ٠

صحيح ان الطيبة ، مثل أماكن أخرى كثيرة ، شحيحة الارض ،قليلة المياه ، لكن فيها شيئا يجذب الانسان ويشده اليها شدا محكما ٠ واذا بدأ المسنون الحديث ، فى السهرات الطويلة خلال الصيف ، فانهم يتحدثون بلغة تروق كثيرا لهؤلاء الذين أتوا من المدينة : « قبل سنين كثيرة كانت الجبال المحيطة بالطيبة خضراء مثل البساتين ، لكن الاتراك وهم يبنون سكة الحديد ، ثم وهم يسيرون القطارات ، لم يتركوا شجرة الا وقطعوها ٠ كانوا يريدون أخشابا ، ولا يهمهم من أين ، والاشجار التى لم يستطيعوا الوصول اليها ، التى كانت فى المعاصى وفى قمم الجبال ، أحرقوها وهم يرحلون ٠ اما الجبال التى ترونها عارية الآن ، من المدينة البعيدة وحتى الطيبة ، فقد رأيناها خضراء حين كنا صغارا ٠ كان الفارس يضيع في الغابات الكثيفة التى تملأ السهول القريبة من الطيبة » ٠

مثل هذه الاحاديث توقد في الاذهان صورا لا نهاية لها ، وابناء الطيبة الذين سمعوها مرات كثيرة ، كان يروق لهم أن يدفعوا المسنين لاستعادتها مرات ومرات ، خاصة وهم يستقبلون ضيوفا من المدينة ٠ كانوا يريدون ، بطريقة غامضة ، أن يثبتوا ميزة خاصة لبلدتهم ، وهذه الميزة ، وان كانت لا تظهر بالوضوح الذى يشتهون فى الوقت الحاضر ، فانها تكمن في مكان ما ، ولابد أن تظهر ٠ ويضيفون بمكر وغموض : « ليس هناك أفضل من أن يقضى الانسان أيامه الاخيرة فى هذه البلدة المباركة » وبالمكر نفسه يدفعون المسنين لان يتحدثوا عن الاعمار ٠ وهذا الحديث الذى يروق لبعض الرجال ، كان يزعج النساء ويدفعهن الى المقاطعة ، وبعض الاحيان الى الاستفزاز ، لكن لا يكاد الحديث يأخذ مجرى جديا مرة أخرى ، حتى يتحدث المسنون عن نقاوة الهواء وعذوبة الماء ، ويتحدثوا عن فوائد النوم المبكر واليقظة المبكرة ، ثم نوع الاكل الذى يأكلونه ، ويعزون الامراض الجديدة والموت المبكر والمفاجىء ، الذى يداهم المدينة ، الى مجموعة من الاسباب لم يألفوها ولم يسمعوا بها من قبل !

وأحاديث السهر تبدأ دون منطق وبلا نظام ، وقد يتخللها بعض

الالعاب البريئة ، وتلك الامور تجرى عفو اللحظة ، وبلا تخطيط سابق ، ومهما تشعبت وتباعدت ، ومثلما بدأت بالغابات والاشجار والينابيع ؛ فلابد أن يجرى الحديث أيضا عن أيام القحط والصعوبات التي عاشتها الطيبة خلال تلك السنين . واذا كانت اللذة والايام الرائعة المليئة بالخصب تحرك المشاعر ، فان المصاعب التى عاشها البشر وتغلبوا عليها تحرك مشاعر أخرى ، مشاعر تزخر بالقوة وبعظمة من نوع خاص ، حتى ابناء الطيبة الذين سمعوا هذه الاحاديث مرات كثيرة ، يلذ لهم أن يسمعوها من جديد ، وفى كل مرة تبدو لهم جديدة مليئة بالبطولة والعبر : « كنا نأكل الاعشاب وجذور النباتات .. كنا نأكل الجرابيع .. حتى الجراد الذى كثيرا ما كان يأتي في سنوات المحل ، أو الذى يسبب المحل ، كنا نأكله . صحيح ان الحياة آنذاك كانت في منتهى القسوة والصعوبة ، لكن الرجال فى تلك الايام كانوا رجالا ، كانوا اقوياء وقادرين على الاحتمال والصبر ، وكانوا قادرين على أن يأكلوا الصخر . اما رجال هذه الايام .. » ويبتسم بعض المسنين ، ويتذكر الآخرون ، وينظرون في وجوه بعض ، وينظرون في وجوه أبنائهم ، ثم في وجوه الضيوف !

هذا جزء مما تعنيه الطيبة في ذاكرة ابنائها ، اما اذا جاء القحط فلا يبقى أحد من أهل الطيبة ، سواء كان يعيش فيها أو كان بعيدا عنها ، الا ويحس بمرض من نوع ما ، ولا يلبث هـــذا المرض أن يتحـــول الى هاجس ثم كابوس • وبرغم ان الابناء البعيدين لا يحتـــاجون الى من يحرضهم لكي يجيئوا أو يبعثوا الى البلدة بكل ما يستطيعون ، فان هذه المساعدات لا تقوى على مواجهة الكرب والوقوف في وجه المصـــائب التي تتوالى بسرعة • فحين يبدأ النبع يتراخى والساقية تضمر ، ثم تجف في نهايتها ، يصبح المجرى مثل حية ماتت لتوها وبدأت تتخلى عن قشرتها ، وفي هذه الاوقات تبدأ الاشجار بالذبول ، ثم الجفاف • كانت أشـــجار المشمش أول الاشجار التي تموت ، ثم تبدأ بعد ذلك الاشجار الاخرى ، وتبور مواسم الجوزوالزيتون ، وتصـــبح الطيبة كالحة قبيحة ويغلب عليها لون الصفرة • ومن ناحية الجنوب ، بدل الفقع والكماء والحميض والانواع الكثيرة من الفطر ، تبدأ عواصف الرمال تهب لتغطي كل شيء ، وتخيم على سماء الطيبة موجة من الغبار الممرض ، وتتكاثر أفواج الذباب والغربان على الفطائس وعلى بقايا البراز ، وتتحول الاصــــوات الى دوي مكتوم ينذر بشؤم ما • وفي هذي السنين لابد أن يموت عدد كبير من الناس ، ولابد أن تحصل أشياء لم يقدرها الكثيرون !

لا تقتصر هذه الحالة على البشر ، اذ تمتد الى الحيوانات والطيـــور ، فالحيوانات التي كانت تملأ منطقة شاسعة حول الطيبة وتسرح بلا مبالاة ورخاوة ، وتقضي جزءا من نهاراتها في سكينة أقرب الى الدعة من الشبع والامتلاء ، لا تلبث أن تتحول الى حيوانات نزقة شـــديدة الجفلة كثيرة الحركة ، بحثا عن شيء تأكله ، ثم تتحول الى الشراسة والعناد ، فتبدو هائجة ويمكن أن تتصرف بجموح يصل الى درجة الاذى ، وأخيرا يضربها الهزال والمرض ، وفي هذه الحالة يتراكض أصـــحابها بعصـــبية لكي يتخلصوا منها بالذبح أو البيع •

اما الطيور التي تعبر سماوات كثيرة متجهة الى حيث تجد رزقها ، فقد كانت تعبر سماء الطيبة بسرعة ودون أن تتوقف ، وكأنهـــا بغــــريزة غامضـــة ، ومنذ أزمان موغلة في القدم ، وبتوارث فذ ، تعرف كيف

تتجاوز الطيبة والى أين تذهب • هذا تلك الطيور الصحراوية القاسية الملعونة ، فقد كانت تترك أماكن كثيرة في هذا العالم وتتجه الى الطيبة أو قريبا منها ، وتبدأ من هنا معركتها الازلية مع البشر وبقايا الحب وقطرات الماء •

واذا كان لكل مدينة وبلدة وقرية جنونها ومجانينها ، فان جنون الطيبة أنواع كثيرة ، لكن نوعا خاصا ، أكثر من غيره ، يظهر في سنوات الجفاف • وهذا النوع يغطي على غيره ويكاد يكون الوحيد ، انه جنون الصيد • حتى الذين لا يمارسون هذه الهواية ، وينظرون اليها نظرة تتراوح بين الزراية والرفض ،ويفسرونها على انها أقرب الى الغفلة ورغبة الكسل ، فانهم يكتشفون فجأة في أنفسهم حنينا موجعا لان يصبحوا صيادين بشكل ما • قد تدفعهم الى ذلك الرغبة لتأمين الرزق ، أو لطرد الطيور الجارحة والانتقام منها ، لعل بعض الحبوب تبقى وتنبت في السنة التالية ، أو لعل تلك الحبوب تتفتح عن بعض أوراق خضراء تأكلها الحيوانات الجائعة ، وربما كان الدافع الى ذلك الرغبة في الانتقام من عدو ما !

كان مجانين الطيبة في هذه السنة أكثر عددا وأكثر صخبا من أية سنة سابقة • حتى في سنة المجاعة الكبيرة ، التي أعقبت الحروب ، لم يظهر مثل هذا العدد ، ولم تظهر مثل هذه الحالة • اذ ما كاد يبدأ موسم الصيد حتى أخرج هؤلاء المجانين البنادق القديمة من مخابئها ، مسحوا عنها الغبار ، نظفوها جيدا ، وبدأوا يضعون الخطط ويتحدثون • لم يكتفوا بذلك ، ابتدعوا وسائل صيد جديدة ، وتفننوا في تحضير الخرطوش واختراعه • ولكي ينتقم اولئك المجانين ، المصابون بهذا المرض منذ وقت طويل ، من أيام ماضية ، حين كانوا سخرية أهل الطيبة ، لجأوا الى المكر والدهاء ، فلم يتركوا أحدا الا واغروه بالصيد وأكدوا ان هذه الطريقة وحدها يمكن أن تنقذ البلدة ، ولكي ينجحوا في لعبتهم حتى النهاية وزعوا على الكثيرين ، مجانا ، عددا من الخرطوش الذي يصنعونه بأيديهم وبوسائلهم البدائية ، واتخذوهم مساعدين لهم في تحضير كل ما من شأنه أن يسهل مهمتهم ، وقالوا بصوت واضح « ليس أسهل من الصيد ، ولكي يصبح الانسان صيادا يجب أن يمارس الصيد ، تماما مثلما يتعلم السباحة » • والذين استمعوا اليهم بانتباه لم يصدقوا آذانهم ، أول الامر ، لكن الاغراء الخفي الماكر جر الكثيرين ، فيوما بعد يوم كان ينضم الى مجانين البلدة مجانين آخرون ، وكان الوافدون الجدد يمتلئون زهوا حين تصيب طلقاتهم طيرا من الطيور ،

وبين عشية وأخرى يتحولون الى مهووسين لا يعرفون الراحة والهدوء الا بالقتل والركض وراء الطيور من مكان الى آخر •

هكذا بدأت اللعبة أول الامر • وهي وان بدأت صغيرة خفية ، فقد أثارت حنق عدد كبير من المسنين ، والذين ينظرون الى الصيد على انه وسيلة للرزق والحياة •

لقد كانت اللعبة أقرب الى العبث ولا تناسب الرجال الذين يقدرون مسئولياتهم ، ويجب أن ينشغلوا بالهموم الكبيرة التي أخذت تزداد يوما بعد آخر • لكن اللعبة تكبر وتتسع كل يوم • والذين أبدوا بعض التردد ما لبثوا أن تراجعوا ، خاصة حين أخذوا يشاهدون طيور القطا محمولة بالعشرات ، حين يقلبونها ليتأكدوا من كمية اللحم فيها فكانوا يقولون بصوت عال : ــ ضعيفة •• نعم انها أضعف من أية سنة سابقة !

ولكي يتأكدوا ان ما يقولونه هو الحقيقة كانوا يقلبونها مرة أخرى ، ويشمون على صدورها ، وبهذه الحركات الاضافية ، وبضغط الاصابع على اللحم الطرى ، كانت تتغير مواقفهم ويحسون برغبة مغرية • اما حين يبدءون بعدها فكان التردد يتراجع مع كل رقم جديد ، لكن دون اعلان ، ودون كلمات ، ويكون كل واحد منهم قد اتخذ قرارا داخليا ان يبدأ اللعبة !

والمسنون الذين صرخوا بغضب ، واعتبروا هذا الهوس نوعا من الفتنة أو الجنون ، ولا يليق بالرجال في مثل هذه المحنة القاسية ، ما لبثوا أن تراجعوا • صحيح انهم لم يفعلوا ذلك سريعا وبشكل علني ، لكن اعتراضاتهم بدأت تقل وتتراجع يوما بعد آخر ، وبدأت كلماتهم تأخذ طابعا لينا أقرب الى النصح :

ــ اذهبوا الى المدينة واعملوا هناك ، أما أن تنتشروا في هذه الارض الغبراء ، وان تتشردوا بين الجبال والصحراء ، من أجل طيور جائعة ، وليس فيها سوى العصب والريش ، فان ذلك مضيعة للوقت •

وحين يهز الشباب رءوسهم اشارة الى انهم سمعوا ماقاله المسنون ، دون أن تعني الاشارة موافقة أو رفضا ، كان يضيف بعض المسنين :

ــ اذا جاءت المصائب فانها تجيء مرة واحدة !

وتستمر اللعبة تكبر ، ويستمر الشباب في ترتيب لوازم الصيد لليوم التالي : يهيئون الخرطوش ، ينظفون البنادق ،يصنعون قطعا من القماش الملون المليء بالثقوب لاستدراج الطيور والاحتيال عليها • وحين يرى

المسنون ذلك ، ويجدون لدى الشباب اصرارا لا يتزعزع ، كانت لهجة الكثيرين تصبح أكثر حنوا وخوفا :

ـ هذا البارود يأكل الاخضر واليابس ، يجب أن تحذروا !

ويرقب المسنون بعناية الطريقة التى يصنع بها الخرطوش ليتأكدوا ان الشباب يفعلون ذلك دون ما خطأ ، فاذا تأكدوا كانت كلمة وحيدة تتكرر بلا انقطاع :

ـ كل البلاء من المجنون الكبير عساف !

عساف الرجل الذى يعرفه أهل الطيبة كلهم ، نساء ورجالا ، كبارا وصغارا ، هو نفسه عساف الذى يبدو غامضا ومجهـــولا بالنســـبة للجميع ، وقلما يراه أو يجلس معه أحد ·

بين الاربعين والخمسين ، طويل مع انحناءة صغيرة ، ضامر لكنه قوى البنية ، أعزب لاسباب يختلف فيها الناس كثيرا · قيل انه كان يريد ابنة عمه ، لكن أباها رفض « لان عساف بلا عمل ولا يستطيع أن يعيل نفسه فكيف اذا تزوج وجاءه أولاد » ؟ وقيل ان الفتاة رفضت وهددت أن تحرق نفسها ان هم أجبروها على الزواج به ، وتعللت بغرابة الطبع والقسـوة ، وحين سئلت امها ، في وقت متاخر ، أبدت اســتنكارها الشديد ، وقالت ان حذاء ابنتها يعادل رأس هذا المتشرد الذى يعيش فى البرارى والمغاور ، ووصفته بالمجنون أيضا ·ولو حاول أى انسان التحرى عن أسباب أخرى لوجد الكثير · ان هذه القضية التى شغلت الطيبة وقتا ما انتهت بصمت وهدوء ، ولم تعد تشغل أحدا · أما ما خلفته من نتائج فاسم جديد لعساف : ابو ليلى · وبعض الذين استمروا يبدون اهتماما بهذا الامر ، تحول لديهم هذا الاهتمام مع الايام الى نوع من الطـــرافة والسخرية ، خاصة وان عساف يرفض الاجابة عن أى سؤال له علاقة بهذا الموضوع ، وهكذا تعود الناس أن يكون عساف بهذا الشكل ، ولو ظهر بشكل آخر لبدا غريبا !

منذ كان صغيرا شغلته قضية الصيد ، وهذه القضية كبرت عاما بعد عام مادام عساف يكبر ، واذا كانت بسيطة وبدائية حين كان صغيرا ، ويفعل ما يفعله الصبيان فى مثل عمره ، فقد كان أكثرهم ولعا وتعلقا · أما حين مات أبوه فقد استغرق فى هذه الهواية الخطرة · لم يعد يكتفى بما يفعله الصغار ، كان يقلد الكبار ويذهب حيث يذهبون ،وكان يحاول باستمرار ابتداع وسائل جديدة للصيد · ونتيجة لهذا الوضـــع فقد اكتسب عادات خاصة أقرب الى الغرابة ، كان يقضى وقته فى البساتين ، بدأ التدخين فى سن مبكرة ، اصبح كثير التفكير والتأمل فى كل ماحوله من طبيعة وبشر وحيوانات ، وكان أغلب الاحيان بعيـدا عن الناس ، أما حين يكون بينهم فالصمت سلاحه تجاه الاخرين ·

ظل يتطور بهذا الشكل ، وحين ماتت أمه ، تغيرت طباعه اكثر من قبل ، فبدل أن يعود الى البلدة ويصبح مثل الآخرين ، يزرع ويحصد ويستقر ، فقد اشترى بندقية صيد من النوع القديم ، وبدا الامر غريبا أن يكون فتى في الثالثة عشرة يقلد الكبار ويلاحق الطيور التي لا يفكر بها من كان في عمره ، وان يقضي وقته كله خارج البلدة وحيدا ينتقل من واد الى آخر ومن جبل الى آخر ٠

ان أجزاء كبيرة من حياة عساف بعد ذلك مجهولة ، وحتى لو أراد هو نفسه أن يستعيد حياته ، فلا يتذكر الا الشيء القليل ، لا يتذكر أحداثا كبيرة أو هامة ، سوى تلك التي لها علاقة بالصيد : اين ضرب الذئب وكيف ضربه ؟ كم مرة اضطر للنوم في المغاور خوفا من الموت بردا ، بعد أن سقط الثلج وتراكم بكثافة ليسد الطرق ويجعل الحركة صعبة ، ويتذكر عدد المرات التي رفض أن يضرب اناث الحجل لانها كانت تسوق أمامها أفراخها الصغيرة ٠ ان هذه الذكريات وما يشبهها لا تعني أحدا غيره ، وحتى لو أراد أن يتحدث فان حديثه يبدو غامضا متداخلا ، ولا يستطيع أن يتابعه !

هذا النوع من البشر يتحول يوما بعد آخر الى حالة من الغرابة والانطواء ، ويصبح بطبيعته أميل الى الابتعاد عن الناس أو الاهتمام بهم ، كما ان له عالمه الخاص وهمومه التي لا يشاركه فيها الآخرون ، اما طريقته في التعبير فتكون قاسية فظة ، وقد تؤذي اذا لم تفهم هذه الطبيعة ويحسن التعامل معها ٠

والطيبة ، التي عرفت انماطا كثيرة من البشر ، تعودت على عساف كما تعودت على هذه الانماط ، ولم يعد مظهره الرث أو صمته ، وحتى الشتائم التي يطلقها بعض الاحيان ، اذا حاصره أحد وانهالت عليه الاسئلة والاستفزازات ٠٠ لم تعد هذه الامور تثير حرجا أو خصومات ، اذ ما تكاد تبدأ حتى تأخذ شكلا ساخرا أول الامر ثم ضاحكا في النهاية ٠ وعساف الذي تعود على هذه الحياة كان يجد صعوبة كبيرة في أن يغيرها ٠ وفي المرات القليلة التي كان يضطر الى استبدال بعض من ملابسه يفعل أشياء لا تخطر على بال ولا يفعلها أي عاقل ٠ فحين يبلى حذاؤه ويكون مضطرا لشراء حذاء جديد ، لا يستطيع أن يستعمل الحذاء الذي يشتريه مباشرة ، فكان يدخل عليه تعديلات كبيرة ، تفسده في بعض الحالات ٠ كان يلجأ الى قص الجلد عند الاصبعين الصغيرين ، وكان يضرب الحذاء ضربات قوية بعد أن يضعه في الماء ٠ ولو سأله أحد عن ذلك لما كان لديه شيء يقوله ، حتى هو لا يعرف لماذا يفعل مايفعله ٠ ولو

اقتصر الامر على الاحذية لهان وفهم • لكنه كان يفعل بملابسه شيئا مماثلا • كان يمزق السراويل فى مواضع كثيرة ، وفى تلك المواضـــع يخيط عددا من الرقع الملونة وبعض الاحيان قطعا من الجلد الطرى ان هذا شأن من شئونه ، ولا يستطيع أحد أن يناقشه أو يقنعه بغيرذلك • أما في أيام الاعياد ، وحين يكون مضطرا أن يمر على معظـــم بيـــوت الطيبة ، كما هي العادة منذ أقـدم الايام ، فكان لا يغير شـــيئا فى مظهره ، كما تعود الناس أن يفعلوا ، وقد يبالغ فيلبس أسـوأ ما فى غرفته الصغيرة •• وهي الغرفة الوحيـــدة التى بقيت له بعـد أن باع البستان أول الامر ، ثم باع بعد ذلك جزءا من الدار ، ولم يبق الا على الغرفة الداخلية وحاكورة صغيرة •

هكذا تعود أهل الطيبة على عساف ، ونتيجة الالفة والاستمرار ، لم يعد يثير تساؤلا أو استنكارا • الشيء الوحيد الذى أثار اهتمـــام الناس ذات يوم ، ولم يستمر هذا الشيء طويلا ، ان عســـاف اقتنى كلبا • ولقد بالغ كثيرا ، حين سئل عن الكلب ، فى الحديث عن أهميته وأصله ، وبالغ أكثر من ذلك في تحديد المبلغ الذى دفعه ثمنا له ، وقد قيل مرات كثيرة ان عساف وجد الكلب ضائعا ، ربما من صياد غريب ، نجاه به ، وتجرأ بعض الناس فى الطيبة وقال ان عســـاف سرقه ! وعساف الذى سمع بعض ما يقوله الناس ، كان يبتسم دون اهتمام ، ويطبطب على ظهر الكلب بمودة ، ويقول له : « اسمع ما يقول الهبل » وخلال هذه الفترة قضى عساف وقتا أطول مما تعود فى البيت • وقضى بعد ذلك اسبوعين فى الطيبة ، لم يخرج خلالهما الى الصيد ، وقد فسر الامر بالخوف ، فالذين قالوا انه سرق الكلب ، كانوا متأكدين من ذلك أكثر من قبل ، لان الامر لو كان له سبب آخر لما خشي عساف الخروج الى الصيد واصطحاب كلبه معه • اما الذين قالوا ان عساف وجده فقد كانوا على يقين ان الكلب سيعود الى أصحابه حالما يخـــرج من الدار ويصبح حرا ، ولن يستطيع أن يفعل شيئا لو هـرب الكلب وعاد الى أصحابه ! أما الحقيقة فهى ان عساف لا يثق الا بما يفعله ، ولا يتأكد الا اذا فعل الشيء بنفسه ، ولذلك ، وبعد أن رافق صيادين جاءوا الى الطيبة من مكان بعيد ، ونتيجة للجهـد الذى بذله معهم ، ولانه دلهم على أماكن مناسبة للحجل ، ثم تنازل لهم عن الطـــيور الخمسة التى اصطادها ، اعطوه ذلك الكلب •• لكن عساف لم يكن واثقا من الكلب ثقـة كافيـة ، وقد أجهد نفسه لفترة طويلة لكى يدربه ، فأثار بذلك سخرية أهل الطيبة • ومن جملة ما فعله عســـاف في هذه الفترة ،

اضافة الى المدة التي قضاها في البيت ، انه ربط الكلب بحبل وبدأ يتجول به الاماكن القريبة ، واشترى له كمية من « الحامض حلو » ، وحاول أن يعلمه عادات جديدة ، والناس الذين رأوه يجر الكلب بالحبل ضحكوا طويلا وابدوا سخرية مريرة :

ـ انظروا ·· المجنون يربط كلب الصيد !

ـ لا أحد يدري من يصيد لمن ·· أو من يساعد من !

لم يكتفوا بذلك وانما انضموا الى الذين اتهموه بسرقة الكلب ، ولو لم يكن الامر كذلك لما فعل ما يفعله الآن !

ـ سبحان الخالق ·· ربما ولدتهما أم واحدة ·· انظروا ·· انه يشبهه تماما ·

ان ذلك كله من تاريخ الطيبة الاقرب الى النسيان · فبعد أن أصبح عساف والكلب متلازمين ، بدت صورتا الاثنين واحدة ، وتجرأ بعض الخبثاء ، وقالوا ان شبها قويا بين عساف والكلب ، من حيث ضخامة الانف وكبر الاذنين ، ومن الصوت المكتوم الاقرب الى الغرغرة · طبيعي لم يستطع أحد أن يقول هذا الكلام مباشرة لعساف ، أو أثناء وجوده ، لكن أحدا لا يسمي الكلب الا عساف ، ولا أحد ينظر اليه الا تلك النظرة !

ان الطيبة مثل كل القرى والبلدات الاخرى التي تشبهها ، من حيث القسوة والسخرية ورغبة التندر واختلاق بعض الاكاذيب ، وفي اغتياب الناس أيضا ، خاصة اذا كان هؤلاء مثل عساف ، اذ ما يكاد يظهر في غبش الصباح الاول ويراه أحد حتى يمتلىء وجه من يراه بابتسامة أقرب الى السخرية ، ويسأله تلك الاسئلة عن الصيد والكلب ، وعن العجائب التي يراها في البرية ! اما اذا طالت السهرات وامتلأت بالاحاديث فلابد أن يتبرع أحد ويقول شيئا ساخرا :

ـ رأيت اليوم عساف يحمل الكلب على ظهره ·

ويقول آخر والضحكة تملأ حلقه :

ـ رأيت اليوم عساف الحقيقي يحمل البندقية ويصيد ·· ولابد أن يكون هو الصياد وليس هذا الكذوب ·

ويقول ثالث :

ـ أطلق عساف النار على ديك حجل فلم يصبه وأصاب الكلب ، ولذلك فهو كلب أعور !

ان شيئا ما قد حصل في وقت من الاوقات ، لكن طريقة الطيبة في نقل الاخبار تختلف عما يجاورها ، اذ لابد أن يكون في أية قصة

يرويها أحد من أهل الطيبة مقدار من الصحة • فعين الكلب المطفأة كانت هكذا منذ اليوم الاول الذى وصل الكلب الى الطيبة • واذا كان عساف قد قبله هكذا ولم يسأل كيف عورت عينه أو متى فقد قال ذات يوم ان ذلك ربما وقع فى الصيد ، ولم يضف شيئا ، اما الطيبة فقد روت ذلك على انه وقع لعساف ، ومع ذلك الكلب • واذا كان عساف قد اضطر الى حمل الكلب ذات مرة ، فقد فعل ذلك بعد معركة مريرة بين كلبه وذئب ، وقد كاد عساف ذاته يموت خلال تلك المعركة • أما الكلب فقد نهش فى اكثر من موضع ، ولو ترك لمات !
أما حديث البندقية التى يزعم بعض أهل الطيبة انه رأى الكلب يحملها ويصيد بها فلا أساس له البتة ، وانما هو وهم وحسد • لان الكلب ، وبعد تدريب طويل ، كان يساعد فى حمل قسم من الصيد ، كان يحمل ديكا من الحجل بين أسنانه !

والطيبة التى تحب الفكاهة والسخرية ، مثل غيرها من القرى ، فى أوقات الراحة والفرح ، تتغير كثيرا أيام الاحزان ، وتتغير أكثر من أيام تشح الامطار وتأتى سنوات المحل • تصبح بلدة أقرب الى السواد ، تغطيها الظلمة عند الغروب ، وتمتد فوقها موجة من الصمت والاحزان وتبدو لياليها طويلة ساكنة عدا أصوات الكلاب المنفردة الجائعة ، وطلقات تائهة فى بعض الاحيان • وفوق الطيبة ، فى مثل هذه الايام ، تنتشر رائحة ثقيلة منذرة ، لكن لا يميز تلك الرائحة الا من عرفها أو تنشقها ذات يوم !

••• وفى هذه الايام تتغير أشياء كثيرة !

هذه السنة ليست مثل أية سنة سابقة ، هكـــذا بدأت منذ الايام الاولى للشتاء ، فالامطار المبكرة التي تنتظرها جميع القرى الواقعة على أطراف البادية ، والتي تبشر بموسم خصب ، وتحمل معها اعدادا لاحصر لها من النباتات البرية ، ويقال ان تلك النبابات تنزل من السماء مع المطر ـ هذه الســـنة جاءت باردة شـــديدة القســـوة ولم تجيء بالامطار • وأهل الطيبة الذين تعودوا على استقبال مثل هذه الشتاءات الباردة لم يستغربوا ولم يتبرموا ، لانهم لا زالوا في أول الشتاء ، ولان أيام الخير أمامهم لا تزال كثيرة وطويلة ، لكن المســـنين الذين خبروا دورات الطبيعة ، وعرفوا بشائر الخير من نذر القحط ، دخل الخـوف قلوبهم : كان خوفا أقرب الى الحزن ، وارتفعت في ذاكرتهم أيام هذه الايام ، ثم جاءت بعدها المصائب والامراض ، وأخيرا جاء الموت ، ومع ذلك كتموا مشاعرهم في صدورهم وصمتوا • أما الرجال الآخرون ، الاصغر سنا والاقل دراية بالمواسم والطبيعة ، فقد نظروا الى السماء بتساؤل ، وداخلهم الشك فيما يعرفون من أمور • وحين سألهم الصغار ان كان الكماء والفطر والحميض والخبيز وعشرات النبـــاتات البرية الاخرى ، ستأتي هذه السنة ، نظروا الى الصغار بارتياب ، وكأن مثل هذه الاسئلة تحمل لهم امتحانا عسيرا ، واكتفوا باجابات غامضـــة ، أقرب الى التحدي :

ـ الشتاء في أوله ، وانتم مرضى بشيء لم نعرفه عنـــدما كنـا في أعماركم •• انتم مرضى بالاسئلة التي لاجواب لها !

والصغار الذين لم يكتفوا ولم يقتنعوا باجابات الآباء ، ذهبـوا الى الامهات وامطروهن باسئلة لا تنتهي : « متى نذهب الى التشـــول (١) للفقع ؟ » ، « متى نذهب الى الكماء ؟ » ، « سنجد كميات كبيرة من الفطر هـــذه السنة كما وجدناها في السنة الماضـــية ؟ » وإذا كان الابناء ، في مثل هذه السن ، لا يجرءون على مناقشة الآباء أو الالحاف بسؤالهم ، فانهم على الامهات أكثر جرأة وأكثر الحاحا ، والامهـات

(١) « البادية القريبة »

بطريقة غامضة ، وتتميز بمكر خفي ، يحاولن بكل الوسائل أن يصرفن الابناء عن مثل هذه الاسـئلة ، لكن الوعود تبقى قائمة ، والرءوس تشتعل بعشرات الرغبات والاحلام • اما اذا نظرت النسوة في وجوه الرجال ، خاصة المسنين ، فكن يقرأن في تلك الوجوه مصاعب الايام القادمة وآلامها التي لا يمكن أن تنسى !

هكذا بدأ الشتاء في هذه السنة ، واذا كان كل يوم يأتي ولا يأتي المطر ، يحمل معه مزيدا من العصبية للذين يذهبون الى الحقـول ، وينظرون اليها بحزن ، وقد تحجرت التربة من البرودة ، وعبثت بها العصافير الموسيقية التي تأتي باعداد كبيرة وتخلق في الجو دويا لاينقطع منذ الفجر وحتى الغروب ، ولا ترهب هذه العصافير الفزاعات السوداء التي تنصب في أماكن عديدة من الحقول ـ ان كل يوم يمر يحمل قلقا جديدا ، ويضيف خوفا جديدا في قلوب الرجال ، وهما ثقيلا أقرب الى الحزن في قلوب النساء أما حين يعصف الجو وتعربد الرياح الباردة فان انتظارا ممضا يشبه حد الموسى يسيطر على البلدة : « هل ستحمل هذه الرياح المطر ؟ هل سينبت الزرع بعد هذا الجفاف الطويل ؟ واذا جاءت قطرة أو قطرتان ، فمن يضمن المطر في اذار ونسيان ؟ » وتهوم في الرءوس أسئلة من نوع آخر : « مادام الموسم قد انتهى ، فقد كان على الله أن يبعث لنا بالامطار الموسمية المبكرة ، لو جاءت تلك الامطار لاخرجت لنا البرية شيئا نأكله ويعوضـنا عن التعب والموت ، لكن الوسمي انتهى ، وآذار لم تبق فيه الا أيام • وينقضي دون قطرة مطر ، ولا أحد يعرف كيف ستكون الحياة بعد ذلك ! »

في نهاية آذار تماما هطل المطر • كان مطرا غزيرا اسـتمر يومين متوالين • وخلال هذين اليومين تغيرت وجوه الناس وتصرفاتهم ، حتى الذين لا علاقة لهم بالزراعة مباشرة بدوا أكثر فرحا ، وبعض الاحيان اقرب الى الخفة في التعبير عن ذلك الفرح ، وتجرأ الكثيرون وقالوا : « موسم هذه السنة ، خاصة بالنسبة للصيفي ، سـيكون أحسن من جميع المواسم التي شهدناها من قبل » • لكن الذين يزرعون ، والذين عرفوا دورات الطبيعة ، لم يتكلموا ولم يتفاءلوا ، كانوا ينتظرون شيئا آخر • وفي هذه الايام ، وبعد أن اشرقت الشمس وملأت الكـون في اليوم الثالث ، ما لبث الذين امتنعوا عن الزرع في بداية الموسم ، أن حرثوا الارض على عجل ، واستعانوا بكل الوسائل ، لكي يضمنوا لانفسهم زرعا وفيرا مثل غيرهم !

لكن مطر آذار بغزارته وجنـونه لا يمكن أن يقنع المسـنين ولا

يرضيهم ، ان لهؤلاء مزاجا يختلف عن غيرهم ، وهذا المزاج ربما كونته الطبيعة والايام الطويلة والمخاوف ، ربما يتولد لاسباب غامضة مجهولة! وقد تكون له علاقة بالارض ذاتها ، اذ يشعر أى واحد من هؤلاء ان كل يوم جديد يقربه أكثر فأكثر من الارض · وما دام الامر هكذا ، فان أمنية خفية تدفعه لان يتمنى أرضا من نوع ما يمكن أن تستقبل لحمه وعظامه ويحس بنفس الخفاء ان هذا الجفاف الذى تسرب عميقا الى الارض ، ثم تلك الرخاوة اللزجة التى جاء بها مطر آذار ، لايتناسبان ويتمنى لو انه لا يغادر الحياة فى مثل السنة القاسية · وحتى لو بلغ اليأس مبلغا كبيرا فى قلوب المسنين وأصابهم الغم والسأم من هذه الدورة العاتية للطبيعة ، فقد كان كل واحد منهم يريد أن يموت موتا كريما لائقا ، ان يموت فى الوقت الذى انهى كل ما يجب أن يفعله فى هذه الحياة ، وان يغادر الدنيا بهدوء وسلام ، دون جلبة ، ولكن باحترام يناسب عمره ، اما أن يموت مثلما يموت الصغار ، أو مثلما تموت الدواب ، بطريقة مفاجئة ، ودون انذار من أى نوع — ان موتا مثل هذا يدفعه الى شعور عميق باليأس !

ومثلما توقع المسنون حصلت الامور بعد ذلك : فالزرع الذى اهتز فى أعماق التربة من الامطار الغزيرة التى سقطت فى نهاية آذار ، ما لبث أن شق الارض وبدأ ينمو · كانت الزروع بنموها الزاهى ، رغم المسافات المتباعدة فيما بينها ، نتيجة لهجوم العصافير وتقليب المحاريث ، كانت بنموها قوية واثقة ، وما كادت شمس نيسان تحتضنها بالدفء حتى انتعشت وتحركت اكثر من قبل · واذا كان الفلاحون — بتفاؤل موهوم يرددون باصرار ان ما يحتاجون اليه مطرة أو مطرتين فى نيسان : الاولى فى النصف الاول ، والثانية فى نهايته، ثم مطرة أخيرة فى منتصف آيار ، رغم هذا التفاؤل الذى يحاولون من خلاله أن يقنعوا أنفسهم قبل أن يقنعوا غيرهم ، فقد كانت مثل هذه الامنيات مستحيلة ، لان السنة من بدايتها كانت تنذر بالقحط · قال هذا المسنون فى داخلهم ، وقال هذا عساف بصوت عال وأمام جميع الناس · ولو ان أحدا سأل عساف عن السبب الذى يدعوه لان يقول مثل هذا القول ، فلم يكن يملك جوابا واضحا أو مقنعا ، كان يكتفى بأن يقول :

— انتظروا ·· هذا ما أقوله ·· وسوف ترون كل شىء بعيونكم !

والناس حين يسمعون هذا الكلام من عساف تتملكهم العصبية ويصبحون سريعى الغضب ، وأقرب الى التحدى ، لكن فى قرارة أنفسهم

يحسون ان ما يقوله هذا المجنون لا يشبه الكلام الذى يقوله غيره ، ان فيه شيئا من الحقيقة ، حقيقة خفية غامضـــة ، وربما مرتبطة بأمر لا يعرفونه ·

ومثلما أحس المسنون ، ثم توقعوا ، بدأت تتسرب من أفواههم كلمات التحذير ، ثم كلمات الخوف ، وفى وقت لاحق قالوا بوضوح شديد :

ـ ستكون هذه السنة من أصعب السنين التى مرت على الطيبة !

وبعد لحظات من التفكير والتذكر الحزين يضيف أحد المسنين :

ـ لا أتذكر ان سنة مثل هذه مرت على الطيبة من قبل ·

ومثلما توقع المسنون ·· ومثلما قال عساف حصـل كل شيء بعد ذلك !

- ٧ -

في هذا الغم الذي يلف الطيبة من كل جوانبها ، ويزداد يوما بعد آخر ، كان عساف لا يهدأ ولا يستريح ، اذ ما يكاد يعود بعد الغروب، حاملا معه عشرات الطيور ، حتى يبدأ يدق بعض الابواب . كان يختار تلك الابواب بعناية ، ويفكر بذلك من قبل طويلا . كان مع كل طلقة ينوى حتى قبل سقوط الطير : « أنت لام صبرى » ، و « انت لداود الاعمى » ، « وانت لسعيد الذى لا يتقن فى هذه الدنيا سوى انجاب البنات » !

هكذا كان يفعل وهو يطارد الطيور . وحين يدق الابواب ، ولكى لا يخلق ذلك الخوف الغامض المتربص في كل القلوب ، والذى يعلن عن نهاية صديق أو قريب ، كانت الكلمات التى يطلقها عساف فى الهواء وقبل أن يفتح له الباب :

ـ أنا عساف .. جئت لامسى عليكم !

وقبل أن يسمع الكلمات التى تنهال عليه ، يكون قد ألقى بعض الطيور ومشى !

كان يفعل ذلك كل ليلة ، ولا يبقى لنفسه الا طيرا . وبعض الاحيان لا يبقى شيئا ، وحالما ينتهى من هذه المهمة ، وعلى ضوء فانوس صغير يبدأ بتحضير خرطوش اليوم التالى . يبدأ مهمة لا تعرف التعب أو التوقف ، ولا يكاد يأكل لقمة فى نهاية السهرة حتى يغط فى نوم عميق ، وفي هذا النوم يرى أحلاما لا حصر لها ، كانت تتراءى له آلاف الصور : كيف كانت الطيبة وكيف هي الان ؟! ويسأل نفسه : لماذا تصبح الحياة اكثر صعوبة يوما بعد آخر . اما حين تظهر له صور الاشجار والطيور ، ثم صورة الماء الجارى دون توقف وصورة الربيع يغطى مساحات لانهاية لها ، فكان يرى كل شيء يطير . كانت السماء تمتلىء بالطيور ، وكان الصيادون لا يصيدون الا فى المواسم والطيور التى يجب أن تصاد . ثم تظهر له صور الذين ماتوا ، اما حين يبدأ المطر بالسقوط ويخاف أن توحل الارض وتمنعه من العودة فكان يركض ، وعند ذلك يفزع ويستيقظ من نومه وقد امتلأ خوفا أن يكون الوقت قد فاته ، وحين يحس برائحة الغبار تملأ جو الغرفة يدرك عينيه

لكي يتأكد من الوقت • كانت له ساعة في داخله لا تخطيء ، لم تخطيء مرة واحدة طوال هذه السنين ، . لا تخطيء في الصيف ولا تخطيء في الشتاء • حتى الذين كانوا يأتون الى الطيبة من المدينة ، ويستعدون كثيرا من أجل رحلة الصيد مع عساف ، وينصبون الساعات المنبهة ، ويصدرون الاوامر الصارمة الى المسنين لكي يوقظوهم في الوقت المناسب ، لئلا يتركهم عساف ويمشي ، بحجة ان الشمس ستشرق ويضيع اليوم ، ولكي يكونوا في « المقوس » عند الشروق ـ حتى هؤلاء كانوا يخطئون وعساف لا يخطيء ولا تخطيء ساعته !

وعساف الذي تعود خلال فترة طويلة أن يخرج الى الصيد وحيدا مع كلبه ، كان يجد صعوبة في أن يرد الذين يطلبون الخروج معه ، خاصة من الضيوف ، أو في سنة من سنوات القحط • كان يتمنى لو يبقى وحيدا ، لكن ماذا يستطيع أن يفعل وقد امحلت الارض وابتعدت الغيوم ولم يعد عند الناس شيء يأكلونه ؟ حتى أماكن الصيد التي خبأها لنفسه في فترات سابقة ، وكان يردد لنفسه باصرار انه لن يترك أحدا يصلها ولن يدل أحدا عليها ، لا يستطيع أن يمتنع طويلا في اخفائها •• لكن كان ينبه بتأكيد حازم :

ـ لا تقبلوا الاناث ، انها رزقنا الباقي !

وحين لا يكون متأكدا انهم فهموا جيدا يضيف :

ـ الاناث •• اناث الحجل ، صغيرة ولونها واضح •

اما اذا سألوه مزيدا من التوضيح والمعلومات فكان يقول :

ـ ديك الحجل ، مثل بعض الرجال ، جبان •

وينظر في وجوههم ويضحك ،ثم يتابع :

ـ انه يخاف على نفسه كثيرا ، وهو بلون زاه ، ملون اكثر من الانثى ، ويطير قبلها !

ويهزون رءوسهم دلالة المعرفة ، لكن عساف يخاف هؤلاء الصيادين ويكره الجبناء والخبثاء منهم ، ويخاف أكثر من ذلك ان يأتي يوم لا تجد الطيبة طيرا تصيده • كان يقول بصوت ملء بالاسى :

ـ هذه الطيور لنا ، اليوم أو غدا ، وستبقى لنا اذا حافظنا عليها ، أما اذا قتلناها كلها اذا طاردناها كثيرا ، فسوف تنتهي أو تبحث عن مكان آخر •

ويصرخ بعصبية وقد تراءت له الارض خالية تماما من طيور الحجل :

ـ اسمعوا •• اذا انتهت هذه الطيور وجاءت سنة من سنوات المحل ، واذا ظلت الحكومة تكذب سنة بعد سنة ولا تبني السد ، فتأكدوا ان

أهل الطيبة سيموتون عن بكرة أبيهم • أنا متأكد من ذلك ، فهل يستطيع ابن حرة أن يقتل البشر والطيور ؟

هكذا كان يجرى الحديث فى بداية كل رحلة ، ورغم ذلك يتمطر عساف لقيادة قافلة الصيادين الى أماكن الحجل ، لكنه يلجأ الى المكر أغلب الاحيان : كان يقودهم الى الاماكن الصعبه ، الى الاماكن البعيدة والخطرة ، وكان يعرف ان التعب أو الخوف اذا دخل قلب الصياد يفقده كثيرا من قسوته ويجعله رحيما • هكذا كان يفعل فى بداية الموسم ، أما اذا قست الحياة على الطيبة اكثر من قبل وحاصرها الجوع وبدأ يفتك بها ، فكان يتردد فى أن يتجاوز كثيرا من القيود التى كان يفرضها على نفسه وعلى الآخرين • لكنه يتالم ، يشتعل بالشتائم ويرتكب الكثير من الحماقات • وكان يقول لنفسه لكى يبرر هذه الخطيئه التى تعذبه « اذا لم يأكل الناس الحجل فسوف تأكله بنات آوى والذئاب ، وحتى لو نجا بعض هذه المخلوقات الملعونة ، فسوف يأتى الرعيان لكى يلتقطوا البيض ، ويجب أن لا يموت أهل الطيبة » •

ان له فلسفة خاصة تكونت مع الايام ومن التجارب ، وحتى لو أراد أن يقول بضع كلمات لكى يفسر ما يدور فى عقله فلن يستطيع • أما اذا سأله أحد لماذا يفعل هذا الشيء ، ولماذا لا يفعل ذاك ، فكان يشعر بالحيرة والعجز ، كان يقول :

ـ هذه هى طريقة الصيد ، وهكذا يفعل الصياد !

ولا يضيف شيئا آخر •

بهذه الطريقة كان يتعامل مع الصيد ، وبهذه الفلسفة الغامضة يتصرف ، ويريد الآخرين أن يتصرفوا • فاذا جاء موسم الطيور المهاجرة يشعر بغبطة داخلية عميقة • كان يقول بصوت عال واضح العبرات ، ويريد من كل انسان أن يسمعه :

ـ ليشمر كل واحد منكم عن زنده ، وليثبت الصياد نفسه !

كان يقول مثل هذا الكلام لكى يضلل الصيادين الآخرين ويصرفهم عن الحجل • وهؤلاء الصيادون الذين تعبوا كثيرا من الحجل ، وحفيت أقدامهم وهم يتسلقون الصخور العالية أو وهم يهبطون الاودية السحيقة كانوا فى قرارة أنفسهم يقبلون هذا الكلام ويوافقون عليه ، وفى نطاق التبرير يقولون لانفسهم ولبعضهم :

ـ ما دام شيخ الصيادين ، عساف ، يقول هذا فيجب أن نصدقه وأن نتبعه !

ولكى لا يترك الامر مكرا مجردا ، كان يسبقهم الى أماكن الطيور

المهاجرة وممراتها ، وكان لا يبخل عليهم بأية معلومات تساعدهم وتمكنهم من صيد أوفر • وهم بتقدير غامض يندفعون ، يتفرقون حيث يريد ، الى الاماكن التي يحددها وفي الأوقات التي يحددها ، وبهذه الطريقة يضمن ان بعض طيور الحجل لا تزال حية في المعاصي • كان يقـــول لنفسه بثقة : « حالما تشعر بالامن وبابتعاد أصوات الطلقـات لابد أن تنزل الى أماكنها وتعيش مرة أخرى بسلام ، ومرة أخرى ستفقس وتبدأ الفروخ الجديدة تملأ الجبال والوديان » •

صحيح ان عساف في أعماقه يدرك أن كل حيوان وكل طير يعرف كيف يدافع عن نفسه والى أين يذهب ، الا انه حين يرى الصـــيادين الاغرار يزدادون قسوة ورعونة ، ويخرقون كل قاعدة ، كان يقـــــول لنفسه بألم « يقتلون الناس بهذه الطريقة ، والحجل يعـــرف كيف يختفي » ويضيف بعد فترة صمت طويلة : « حين طاردوا الغـــزلان وقتلوها كلها أصبحت الصحراء مثل قبر كبير ، لا ترسل الا الغبـــار والموت ، ويجب أن يكون أهل الطيبة أذكى من غيرهم فلا يقتلوا كل شيء » •

كان الحجل ، في مثل هذه الســـنين ، وبغريزة غامضـــة ، حتى بالنسبة لعساف نفسه ، يعـــرف كيف يختفي ، حتى ليبـــدو وكأنه انقرض نهائيا ، ولن يأتي شروق أو غروب في يوم من الايام القادمة ويسمع صوته مثل دجاجات تائهة في ســـفوح الجبال الشرقية ، عند ذاك كان الصيادون ، وحتى الاغرار العنيدون ، يتحـــولون • والذي يساعد كثيرا في هذا التحول المفاجيء ان طيور الصـــحراء ، خاصـــة القطا ، تبدأ بالاقتراب يوما بعد آخر من الطيبة ، وباندفاعها الارعن بحثا عن الحب والماء تعرض نفسها للهلاك ، حتى الاولاد الصغار ، في أوقات معينة ، وبتلك الوسائل البدائية التي يملكونها ، يستطيعون الاحتيال عليها واصطياد عدد منها !

لكن تبقى قوة الحياة هي الاقوى ، اذ يتحول القطا ، هـــذا الطائر الابلة شيئا فشيئا الى طائر جني ، ورغم الجـــوع والعطش فان قوة أخرى تسيطر عليه وتوجهه • فالقطا الطائش الذي يمكن أن يقتـــل بالعشرات والمئات في بداية الموسم ، والذي لا يميز الصياد عن الفلاح ، لا يلبث أن يصبح طيرا حذرا • والصيادون الذين يبدون نوعا من الترفع في بداية الموسم ، ويصفون القطا بعشرات الاوصاف الرديئة ، يصفونه بقسوة لحمه وغبائه ، وبانعدام اللذة نهائيا في صيده ، حتى هـــؤلاء يجدون أنفسهم يوما بعد آخر وقد انساقوا الى ملاحقته • وفي هـــذه

الفترة ، ولتبرير هذا السلوك ، يقولون بصوت عال فيه تلك الكبرياء التي تميز الصيادين المغرورين :

ــ ضرب وتنكح ، وأصبح أكثر حذرا من الطيور الاخرى .

ويضيف بعض هؤلاء بثقة كبيرة :

ــ ان صيده الآن أصعب من صيد الحجل !

هكذا تبدأ الدورة تتغير ، والطيبة التي تعيش أياما صعبة مريرة ، وتبحث عن طريقة لتواصل الحياة ، تتغاضى عن أشياء كثيرة ، بما في رعونة الشباب واندفاعهم الى الصيد بهوس لم يتعوده أحد ولم يكن يميزهم من قبل .

لذلك لا يستغرب أحد تلك السهرات التي ينظمها الشباب ، بين فترة واخرى ، والتي يتفقون خلالها على الاماكن التي يجب أن يذهبوا اليها ، وعلى الطريقة التي تساعدهم في اصطياد عدد كبير من الطيور ، خاصة القطا والكدرى ، ويسرفون كثيرا في الحديث عن أخطاء الايام الماضية ، وكيف يجب أن يتجنبوها . وعساف الذى لا يشترك في هذه السهرات الا نادرا ، ولا يهتم بما يدور فيها ، يعــرف الى أين يذهب ومتى . وحين يسأله الشــباب عن الاماكن والطــريقة التي يجب أن يتبعوها ، يكتفي باجابات قصيرة وحاسمة :

ــ هذا الجنون الذى يملأ عقولكم لابد أن يقضي على الصيد كله .

وبكلمات قاسية ، وفيها ذلك النزق الذى يميزه ، يضيف :

ــ الايام الصعبة لم تأت بعد ، وعلينا أن نستعد لتلك الايام !

فاذا سمع كلمات الســخرية والتحــدى ، واذا اتهموه انه يريد التهرب ، كان بانفعال يجيب :

ــ اذا وفرتم الخرطوش ، اذا كنتم اكثر عقلا وصبرا ، فالقطا سيصل اليكم ، ولن تحتاجوا لان تذهبوا اليه !

لكن الشباب لا يسمعون ، وتظل دوافع غامضة وقوية تدفعهم لان ينتقموا ، لان يتباروا . وتحديات مثل هذه تدفع الطيبــة ثمنهــا ، فالطيور التي كانت تهجم برعونه في بداية الموسم ، لا يلبث الخوف أن يتملكها ، وتبدأ البحث عن أماكن أخرى ، أو تغير مواعيد مجيئها وهربها . بكلمة .. تغير هذه الطيور طريقة حياتها ، وتصبح الحيــاة لكل مخلوق أكثر قسوة واكثر صعوبة . حتى عساف نفسه ، الذى كان يعود بأعداد وفيرة من الطيــور ، يبدأ يواجه نفس القــوة التي يواجهها الصيادون الاغرار ، ويبدأ صيده يقل ، ويصبح الصيد عملا مضنيا واقرب الى المغامرة .

لكن عساف لا يهدأ ولا يتوقف !

بدأت اذن الايام الصعبة القاسية • ومثلما اختارت الطيبة أن تكون في هذا الموقع من العالم ، على أطراف البادية ، فقد اختارت الصـــيد والشجاعة ، وعرفت كيف تتحمل كل ما يواجهها من مكاره وصعاب • واذا كانت المجاعات تفرق عادة بين الناس ، وتجعل كل انسان يبحث لنفسه عن طريقة يؤمن بها خبزه ، فان المجاعات والاحزان تقـرب بين الناس في الطيبة ، وتجعلهم اسرة واحدة وجسدا واحدا • وما عـدا تلك الفئة الصغيرة التي جاءت من مكان بعيد ، واختارت الطيبة سكنا لها ، وظلت تعمل وتتصرف بروح الغرباء وخوفهم ، رغم ما قـدم لها أهل الطيبة ، فان البشر اذا واجهوا المصـاعب بروح من التعـاون والمشاركة ، تبدو هذه المصاعب أقل قسوة ، ويمكن التغلب عليهـا • وبهذه الطريقة الفذة المليئة بالبطولة الصامتة ، لم يترك أحد يمـوت دون أن تقدم اليه أقصى المعونات ، وأغلب الاحيـان بشـــكل خفي لا يدركه أحد ، فالاسر الكبيرة العدد ، والتي لا تقوى على مواجهة الحياة، كانت تفتح أبواب بيوتها ، في ساعة من ســـاعات الليل أو النهار ، ويرمى داخلها بكمية من الحنطة أو قليل من السكر والشاى والصابون والناس الذين فقدوا كل ما يملكون ثمنا للبذار ، ثم ثمنـــا لبعض الاشياء التي اشتروها من المدينة ، كان هؤلاء يجدون مساعدة لا تتيسر للذين هم أكثر قدرة منهم • حتى المقعدون وذوو العاهات ، فقد تكفل بهم عدد من الشباب ، وكانوا يقدمون لهم الاكل المطبـــوخ ، وغالبا ما يكون حساء من الطيور أو الهريسة • أما النساء الارامل فقد كن في هذه الفترة موضع رعاية كبيرة •

لكن الطيبة التي تستطيع أن تطعم ابناءها أجزاء من لحمها لا تقوى على مواجهة مثل هذه المصائب سنة بعد أخرى بصدرها المكشـــوف وامكانياتها المحدودة • ورغم ان المسنين حـذروا كثيرا من الاسراف ، وطلبوا من كل بيت أن يقتصد ما وسعه الاقتصاد ، وان يعتبر الايام التي لا تزال الطيبة تعيشها الان أياما رخية ، وبعدها ستأتي المصائب الكبيرة كثيفة متلاحقة ، فان الطيبة ظلت تعيش على أمل غامض ، وظلت تنتظر شيئا ما ، لكن هذا الامل لم يتحقق كما توهمه الكثيرون ، واصبح الانتظار طويلا ممضا !

والابناء فى المدن البعيدة لم ينتظروا صرخات الاستغاثة وانما بادروا الى تقديم كل ما يستطيعون • بعثوا بكميات من الحنطة والشعير ، وبعثوا بالعدس والسكر والشاي والصابون ، وبعثوا أيضا يطلبون أن يأتي عدد من الاهل والاصدقاء ، لينزلوا عندهم في المدينة • وأهل الطيبة ، خاصة الذين تقدموا في العمر ، لا يقوون على الاستجابة لمثل هذه الطلبات ، ولا يتصورون أنفسهم يرحلون تاركين غيرهم للموت جوعا وعطشا ، ان مجرد تصور شيء مثل هذا يولد في النفوس خجلا لا يستطيعون احتماله ، ولذلك لا يجيبون على مثل هذه الرسائل ، ولا يلبونها • والابناء الذين رحلوا ، وظلوا على صلة مع البلدة يعرفون جيدا ان ما يطلبونه أقرب الى المستحيل ، ولن يستجيب اليه أحد ، ولذلك بالغوا أول الامر في ارسال كل ما يستطيعون ، ثم بدأوا يتوافدون الى البلدة ، للزيارة أول الامر ، ثم للمشاركة بطريقة ما من أجل الوقوف في وجه هذا الكرب القاسي ، لعلهم يستطيعون عمل شيء ، أو أن يتعلموا شيئا • كانت الزيارات تمتد أياما ، وتتكرر في أوقات متقاربة ، كما لا تقتصر على المشاركة الوجدانية أو الرغبة في تعذيب النفس ، وانما كانت ترافقها أشياء كثيرة : كميات اضافية من الحنطة والشعير ، أثواب من الخام ، وكانت تأتي معها الوعود والكلمات الكبيرة ، واذا كانت تلك الوعود أقسى الاشياء وأصعبها لكل انسان في الطيبة ، فقد أصبحت في هذه السنة عذابا لا يطيق أحد أن يتحمله • « لم يبق الا القليل ويبدأ بعد ذلك بناء السد •• والسد اذا قام لن تعطش الطيبة ولن تجوع • » هكذا قال لنا الرجال المهمون في العاصمة ، وقالوا أيضا « انه قبل نهاية الخريف ، وقبل موسم الامطار ، ستبدأ الآلات تشق التربة وتدفع أمامها الصخور ، وسوف يأتي مئات العمال والمهندسين ، وسترون ذلك بأعينكم ! » •

وأهل الطيبة الذين يقبلون الاشياء التي تأتي ويوزعونها بعدالة مفرطة ، كانوا يسمعون كلمات المدينة الكبيرة ، ويسمعون عن السد الترابي الذي سينشأ قريبا من الطيبة ، ليجمع المياه التي تتدفق سيولا جارفة في بعض المواسم ، ثم تنتهي الى باطن الارض • ولا أحد يعرف كيف تغور هذه المياه أو الى أين تذهب ،ولا تبقى من تلك السيول غير تلك الكميات الكبيرة من الحصى والمجاري العميقة التي جرفت أجزاء من الاراضي والبساتين ، ولا تبقى أيضا سوى الكلمات الكبيرة والوعود!

كان أهل الطيبة يسمعون ذلك بصمت حزين ، ولا يدرون ايكذبون أبناءهم أو أولئك الرجال الرابضين هناك في الابنية الكبيرة المغلقة ،

كانوا يقولون لانفسهم : « لقد قيل لنا مثل هذا الكلام مرات كثيرة ، وتنقضي السنوات ، سنة وراء سنة ، ولا شيء يتغير » وأهل الطيبة الذين تعودوا نسيان السد والطريق والكهرباء في مواسم الخير ، ولم يفكروا يوما واحدا أن يحصلوا على مثل هذه الخيرات ، فانهم في مواسم القحط يتذكرون كل شيء ، يتذكرون هيئات الرجال الذين أتوا ، والكلمات التي قالوها ، ويتذكرون ان بعض الذين جاءوا زائرين مع ابناء لهم الى الطيبة في سنوات سابقة ، سنوات الخصب والمواسم الطيبة ، وذهبوا الى الصيد أيضا في المناطق المحيطة بالبلدة ، ورجعوا وقد امتلأوا نشوة وتصرفوا في لحظات معينة مثل الاطفال ، وبدوا صادقين .. ان بعض هؤلاء أصبح في المدينة البعيدة كبيرا مهما ، بحيث لا يذكر اسمه الا كما تذكر أسماء الانبياء والاولياء . ان هؤلاء لم يعودوا يتذكرون الطيبة ، ونسوا أصدقاءهم ، وانتهى الامر . والطيبة تعض على جراحها في مواسم القحط والجفاف . اما في مواسم الخير فلا تكف عن أن تبعث بسلال المشمش في بداية الموسم ، ثم بسلال العنب والتين في نهايته ، وبين الموسمين تبعث اللبن والجبن والبيض والخراف الصغيرة أيضا ، ولا تنتظر شيئا من المدينة . تبعث الطيبة كل هذا برضي أقرب الى الحبور ، ويتصور الآباء والامهات ، وهم يبعثون بالسلال وأكياس اللبن في السيارة الصغيرة التي تذهب في الصباح الباكر ، انهم لا يقومون بواجب فقط ، وانما يحسون بالمرارة والحزن أن تأخروا عن موعد سيارة الموظفين ، أو ان لم يستطيعوا قطف التين في الوقت المناسب !

والطيبة التي لم تتنكر ولم تتغير ، وظلت وفية لكل شيء فيها ولكل انسان عاش أو مر في يوم من الايام ، خلقت هذا الوفاء الفذ في ابنائها ، والذي لا يوجد مثيل له فيما جاورها من القرى ، ولا يوجد أيضا في القرى البعيدة .

في هذه السنة القاسية الملعونة جاء عدد كبير من أبناء الطيبة ، جاءوا دون طلب ودون ايعاز من أي نوع ، وما كادت أرجلهم تطأ أرض الطيبة ، وعيونهم تلامس بيوتها ، حتى أحسوا بالحزن العميق ، ولاموا أنفسهم كثيرا انهم تأخروا حتى هذا الوقت ، وشعروا بتأنيب الضمير حين قارنوا حياتهم في المدينة بحياة الناس في الطيبة . لكن هذا الحزن وهذا الندم تراجعا بسرعة ليحل مكانهما الرغبة القوية في أن يفعلوا شيئا ، لعل الطيبة تنجو هذه المرة ، ولعلها تحيا وتستمر الى أن يبنى

السد ، أو يقع شيء ما في المدينة البعيدة ، ويصبح من الممكن بعد ذلك مواجهة الطبيعة القاسية دون انتظار للوعود الكاذبة أو للمطر الابله الذى يأتي سنة وينقطع سنوات .

نزع الذين وصلوا لتوهم ملابس المدينة ، ولبسوا مثلما كانوا يفعلون حين كانوا في البلدة قبل سنوات . وخلال اليوم مروا على أكثر بيوت الطيبة ، وسألوا عن الرجال والنساء ، وحزنوا كثيرا على الذين ماتوا ، وفكروا فيأمور واقتراحات كثيرة ، وقرروا بينهم وبين أنفسهم عدة أمور ، ان هم عادوا الى المدينة مرة أخرى . لم يكتفوا بذلك ، بل وزعوا ما جاءوا به ، وكتبوا رسائل عديدة الى أقرباء وأصدقاء في المدينة البعيدة وفي المهجر . وفي الليل سهروا طويلا يفكرون ويتكلمون ، لكنهم كانوا يحسون في أعماقهم بالمرارة تكوى لهاتهم مع كل كلمة يقولونها ، لانهم لم يكونوا متأكدين من شيء !

واذا كانت الطيبة كثيرة الصبر والتسامح ، وتغفر للغرباء مثلما تغفر لابنائها ، فانها تعرف الغضب في مواسم الجفاف ، وهذا الغضب الذى قد يأخذ شكلا هينا في بعض الاوقات يتحول في النهاية الى جنون لا يطيقه ولا يتصوره أحد .

قال أحد القادمين ، وكان شابا يدرس في مكان بعيد :

ـ الناس هناك لا يفعلون كما تفعلون انتم هنا . انهم .. هناك .. يحولون الكلمات الى قوة . قوة منظمة ومحاربة .. ويجب أن نفعل مثلهم شيئا عاجلا قبل أن يلتهمنا الموت .

قال رجل مسن ، وهو يقلب شفتيه باستنكار ، ويقلب نظراته بين الارض والسماء :

ـ وماذا تريدنا أن نفعل ؟

وقبل ان يجيب الشاب تابع الرجل :

ـ يجب أن تعرف : لا أحد يستطيع مقاومة الحكومة ، علينا أن نكون عقلاء ونفكر بما نستطيع عمله .

قال الشاب بعصبية :

ـ القحط اذا جاء تنامون سنة كاملة ، واذا لم يجيء ، ترسلون الدعاء والرسائل ولا شيء غير ذلك ، وبهذه الطريقة لن تبقى الطيبة !

قال والد ذلك الشاب :

ـ الطيبة ، يا ولدى ، باقية .. لقد مرت سنوات صعبة كثيرة مثل

هذه ، تحمل الناس تلك السنوات وعاشوا بعد ذلك · وظلت الطيبة !
رد الشاب بسخرية :
ـ الموت والحياة فى مثل هذه الظروف متساويان ، انظروا الى الارض والاشجار والدواب ، وانظروا في وجوه البشر ، ان كل شيء يموت ، واذا جاءت سنة مثل هذه السنة فلن يبقى شيء !
كان يمكن لهذا الحديث أن يستمر وان يتطور لكن حين دخل الضيوف ، الذين جاءوا عصر ذلك اليوم ، الى المضافة ، تغير الجو فجأة .

في عصر ذلك اليوم ، في نهاية فصل الصيف تقريبا ، جاء أربعة من الضـيوف ، جاءوا مع أصدقاء لهم من أهل الطيبة ، جاءوا في سيارتين ، احداهما سيارة جيب والاخرى فولكس فاكن صغيرة رمادية ، ورغم ان أبناء الطيبة ، المقيمين والراحلين ، يتميزون برهافة الحس ودماثة الخلق ، ويعرفون كيف يعضون على جراحهم بصمت ويكتمون أحزانهم بصبر عجيب ، حتى يخطيء الكثيرون في فهمهم أو تحديد مشاعرهم ، فان الكثير من المتاعب والمشـاكل التي يريدون بحثهـا والحديث فيها حين يخلون لانفسهم ، يتركونها جانبـا ، ويتحـدثون بطريقة مختلفة حين يأتي الضيوف • والمسنون الذين تعودوا على كتم مشاعرهم وانتظار الاوقات المناسبة للحديث يختلفـون عن الرجال الاصغر سنا ، اذ يصاب هؤلاء بنوع من الحمى ولا يقوون على كتم الافكار والمشاعر التي تملأ صدورهم ، خاصة في موسم مثل هذا الموسم •

كانت هناك رغبة لان يتحدث بعض الرجـال للمرة الاخـيرة ، أمام الضيوف ، واذا كان الكثيرون من أهل الطيبة قد انتظروا بصبر فارغ مجيء الابناء من المدينة ، لكي يتحدثوا للمرة الاخيرة ، في أمر السد ، متى يجب أن يقوم وماذا فعلوا من أجل قيامه ، وانهم لم يعودوا قادرين على الانتظار أكثر مما فعلوا ، واذا صبروا وتحملوا السـنين الماضية بصمت فلن يستطيعوا بعد اليوم احتمال ذلك ، وسـوف يلجئون الى وسائل جديدة لاقناع الكبار هناك في المدينة ، بمدى القـدرة التي يمتلكونها •

اذا كان أهل الطيبة قد انتظروا طويلا ، فقد خاب ظنهم تماما حين رأوا عصر ذلك اليوم سيارتين غريبتين تدخلان الضـيعة • اما حين تعانق الآباء والامهات مع ابنائهم العائدين ، فقد طغت للحظـات قوة الحب على قوة العتاب ، وجاشت الدموع في العيـون وغلبت جميع المشاعر الاخرى ، ونتيجة ذلك تراجعت الافكار والكلمات الغاضـبة لتحل مكانها مشاعر المودة وكلمات الترحيب • والضـيوف الذين لم يروا الطيبة قبل هذه المرة ، لم يروا فيها شيئا مختلفا ، ولم يحسوا بذلك الدوى الداخلي الذي يولده الجفاف • اما حين قابلتهم الابتسامات الواسعة والترحيب الحار فقد أحسوا بدفء داخلي وحسـدوا هؤلاء الناس على هذا الرضى الذي يمتلكونه !

بهذه الطريقة تأجلت أمور كثيرة وحلت أخرى مكانها ، فالاشياء التي حملها الابناء من المدينة وزعت بعناية ، واختلى بعض المسنين لينصحوا بعضهم أن يتصرفوا بحكمة ، ولكي يطلبوا من الشباب احترام الضيوف

مثلما تعودوا دائما ، دون اثارة لاية أحزان أو مشاكل • وقالوا في أنفسهم : « سيبقى الضيوف يوما أو يومين ثم يرحلون ، وبعد ذلك سوف تقلب الدنيا على رءوس هؤلاء الابناء العاقين ، الذين لا يعرفون شيئا في الدنيا سوى ارسال بعض الحاجات في مواسم الجفاف ، وكأن الطيبة أصبحت مأوى للمتسولين والجيـــاع ، ويجب أن تبقى كذلك أما الوعود الكثيرة عن المياه التي ستتدفق طوال أيام السنة ، أما عن الاسماك التي ستزرع في البحيرة ، عن القنوات التي ستمتد الى مسافات بعيدة ، فقد انتهى الامر كله ، ولم يبق الا صـــدى الكلمات يتردد كل بضع سنين ، شفقة أو حسرة على هذه البلدة التي تموت يوما بعد يوم .

هكذا كانت الساعات الاولى ، وهكذا كانت مشاعر الناس ، وابناء الطيبة الذين أحسوا بغريزتهم ان كل شيء قد تغير في البلدة ، وان الايام التي يعيشها أهلها من القسوة الى درجة لم يكونوا يتصورونها ، ورأوا التغيرات العميقة التي دخلت في كل شيء يلمحونه ، شعروا انهم أذنبوا كثيرا وان أية كلمات تقال الآن لابد أن تكون عاجزة ولا تعبر عما تفيض به قلوبهم ، ولان الضيوف قد أتوا ، ولانهم تعودوا على شكل معين من التصرفات ، فقد فهموا من النظرات ، من الاشارات ، وحتى من لمسات الايدى ، ان الطيبة تغلي ولابد أن تنفجر بشكل أو آخر ، لكن هذه المشاعر تركت جانبا ، لان الضيوف بدا لهم كل شيء غريبا وطريفا !

أما حين انعقد مجلس السمر فقد تركز الحديث على الطيبة ، لان الضيوف جاءوا لهذه الغاية ، وما دام الضيوف يريدون هذا ، فان هذا ما حصل !

وأهل الطيبة الذين كانوا قادرين على التغلب على الغضب في أوقات معينة ، فقد كانوا قادرين أيضا على الصبر ، ويلجئون الى كل الوسائل لمواجهة الجوع والموت ، وحين يذكر الضيفان وسيلة لمواجهة المجاعة وانقاذ ما يمكن انقاذه ، تتردد كلمة واحدة ، وكأنها كلمة السر : أين عساف ؟ ودون عناء كبير يتبين الكثيرون المفارقات الاجتماعية في غمرة الحزن والجوع والتحدي ومواجهة الموت . ومن أجل التغلب على الحزن والجوع والموت ، تفلت كلمة ساخرة ، أقرب الى الدعابة ، يقول أحد الحاضرين ، ليتغلب على المناقشة الحادة التي بدأت ولا يعرف كيف ستنتهي :

— نريد عساف [illegible]

- ١٠ -

دخل عساف عصبيا مخطوف الوجه ، وبغمغمة لا تكاد تفهم ، ألقى التحية ، وجلس قريبا من الباب . وأهل الطيبة الذين تعـــودوا على عساف ، وقبلوا جنونه ، رفضوا بكثير من الاصرار أن يصطحب كلبه معه الى سهراتهم والى مجالسهم . وهـــذا الرفض الذى آذى عســـاف كثيرا ، قابله برفض أشد قسوة وأشد اصرارا ، حتى انتهى الامر الى ذلك الاتفاق الضمني بان يدخل عساف الى المجلس دون أن يصـــافح أحدا ، وان يبقى كلبه قريبا من الباب . واذا كان عساف قد قبل هذه الشروط مكرها ، فان علاقته بمجالس البلدة وأحاديثها قليلة الى درجة ان الناس لا يرونه الا نادرا . أما اذا جاء ضيف الى البلـــدة من أجل الصيد ، فقد كان أول الذين يجب دعوتهم وحضورهم هو عســـاف ، وعساف الذى لا يحب حضور المجالس ، يكره أيضا هؤلاء الضيوف ، ويعتبرهم ، أغلب الاحيان ، ثقلاء شديدى البلادة والحور ، لكن مثلما علمته الطيبة ، كان مضطرا الى مصاحبتهم والى مجاملتهم ، ومن أجـــل ذلك كان يتحمل الكثير !

في هذه الامسية ، وحين أتوا بعساف ، أحس ان الامر غير عادى . أما حين جلس قرب الباب واجلس كلبه الى جانبه ، فقد سمع أكثر من صوت يدعوه الى صدر المجلس . وازاء رفضه ، نهض واحد من أبنـــاء الطيبة القادمين مع الضيوف ، ومد يده يحيى عســـاف بحرارة أول الامر ، ثم يسحبه بقوة لكي يغير مكانه . استمر الامر بعض الوقت ، بين القبول والرفض ، الى أن اقترح أحد المسنين انتقال عساف وبقاء الكلب حيث كان .

ان في حياة كل انسان لحظات من الخصوبة لا يدركها ، ولا يعرف متى أو كيف تأتيه أو كيف تنفجر فى داخله . انها تندفع فجـــأة ، تعربد مثل الرياح أو مثل الامطار الغـــزيرة المفاجئة ، وتغطى على كل شيء ، ومثلما تأتي فجأة تنتهي كذلك ، كأنها مياه غارت لتوها في أرض رملية عطشى !

هذه اللحظات لا يخطط لها أحـــد ولا يدبرها أحد ، حتى لو أراد ، وعساف الذى جاء مكـــرها ، ليلتقى ببعض الوجوه التى لم يرها من

قبل ، وقد لا يراها مرة أخرى بعد أن تغادر الطيبة ، والذى أغضبته كلمة احد المسنين حين طلب منه أن يبقي كلبه عند وصيد الباب ، وجد نفسه فجأة في عالم من الوجد وأقرب ما يكون الى التجلي ، اذ ما كاد يسأل عن الصيد ، وعن عدد الطيور التي صادها ذلك اليوم ، وكيف كان الموسم بصورة عامة حتى أحس بالاختناق ، وتمنى لو انه لم يأت ، وتمنى أكثر من ذلك لو يستطيع مغادرة المجلس • لكن كان يعرف أهل الطيبة ، يعرف مقدار الود القاسى الذى يكنونه له ، ويحس ان رابطة عمرها مئات السنين تربطه بكل ما حوله من أرض وبشر وأشجار ومياه ، وان هذه الرابطة تكون أشد وأقوى حين تمر سنة صعبة مثل هذه السنة التى تمر على الطيبة •

كان مصمما ، أول الامر ، أن لا يتكلم ، فاذا حاصروه بالاسئلة ، ولم يجد مجالا للهرب ، فلا أقل من بضع كلمات يقولها ، لكن فجأة امتلأ بشعور الالفة والتحدى معا ، وأحس ان قلبه يخفق بضربات سريعة أكثر مما تعود حين يكون فى مثل هذا الموقف ، وقرر أن يفعل شيئا لم يفعله من قبل •

يتذكر هو نفسه ، ويتذكر كل من كان موجودا ، انه لاول مرة فى حياته ، قرر أن يخوض معركة لم يخض مثلها من قبل ، ورغم ما يقال دائما من أن حياته بدأت معركة متصلة ، اذ ما كادت الاسئلة تنهال عليه ، وكلها عن الصيد ، حتى صرخ بتحد :

ــ تعال •• تعال يا حصان !

وانتفض الكلب فجأة ، ومثل حية ملساء ، انسل ليجلس عند أقدام عساف •

كانت الحركة مفاجأة ، لم يتوقعها أحد ، وللحظات خيمت الدهشة وعم الذهول ، والمسنون الذين يملكون ، أغلب الاحيان ، الحق بالامر والنهى • أحسوا ان صوت عساف ، وهو يدعو كلبه ، غير مألوف ، ولا يمكن مقاومته • تبادلوا النظرات فيما بينهم ، ونظروا الى عساف ، لكن لاول مرة فى حياتهم الطويلة الحافلة يكتشفون فى عينيه بريقا قاسيا وحشيا ، ودون وعى أو ارادة ، تراجعت كلمات الاعتراض لتحل مكانها هزات الرءوس تعبيرا عن الاسف وشىء من العتاب •

لم ينتظر عساف ، اعتدل في جلسته ، أجال نظرة طويلة فى وجوه الناس الذين خيم عليهم الصمت ، وبطريقة مليئة بالمحبة والحنان معا ، امتدت يده الى الكلب ، مسد على ظهره أكثر من مرة ، ودون أن ينظر الى أحد ، وكأنه يخاطب نفسه ، بدأ :

ـ ماذا تظنون يا أهل الطيبة ؟ هل تظنون ان هذه السنة مثل السنين القاسية التى مرت عليكم ؟ هل تظنون انكم ستواصلون الحياة حتى تأتي الامطار مرة أخرى ؟ ان من يظن ذلك أقرب الى الجنون •

توقف لحظة • عب نفسا عميقا من سـيجارته ، وتطلع في وجوه الرجال مرة أخرى ، ثم تابع :

ـ قلت لكم الف مرة : لم يبق بيننا وبين الموت الا ذراع ، وهذه الذراع هي الصيد الذى نستطيع أن نوفره حين تأتى الامطار مرة أخرى • قلت لكم مئات المرات وانتم لا تسمعون هذا الكلام ، وبدل ذلك تزدادون حماقة يوما بعد يوم • قلت لكم اتركوا اناث الحجل للسنوات القادمة ، انها رزقنا الباقي • قلت لكم : وفروا الخرطوش ولا تفزعوا الطير ، وعندها سيأتي اليكم بدل أن تذهبوا اليه ، لكنكم يوما بعد آخر تزدادون عنادا وتحديا • قلت لكم انقلوا من النبع حمل حمارين أو ثلاثة حمير وارموا بها فى الخوابى القريبة ، ثم اربضوا هناك حتى تأتي الطيور ، فامتلأت وجوهكم بالابتسامات الساخرة وقلتم عساف انهبل ، لانه يطلب منا أن نبذر ما تبقى لنا من الماء ونرميه فى الصحراء • والآن تأتون بهؤلاء الافندية وتتظاهرون بالنبل والكرم وتطلبون من عساف أن يصطحبهم الى الصيد ، وان يجعلهم يصيدون ! ماذا يستطيع أن يصيد هؤلاء أو غيرهم ما دمتم ملأتم الدنيا بالطلقات المجنونة تبذرونها فى الهواء ، حتى لم يبق طير من طيور السماء أو حيوان من حيوانات الارض الا وسمع عددا لا حصر له من الطلقات ؟

وحرك يديه بطريقة يائسة ، وتطلع فى وجوه الضيوف ، ثم تابع بلهجة جديدة :

ـ يا سادة •• كان الحجل يصل الى أبواب البيوت • كانت الغزلان والارانب تملأ السهل كله ، كانت ممرات الترغل كثيرة الى درجة أن عساف نفسه يحتار الى أين يذهب وأى الممرات يفضل • هكذا كان الامر فى الاوقات السابقة • وأهل الطيبة بدل أن يحافظوا على هذه النعمة ، لم يتركوا أي ابن عاهرة ولمسافة الف كيلو الا ودلوه على الطيبة اعذرونى •• أنا لا أقصد أي واحد منكم • انتم على عيوننا وعلى رءوسنا ، لكن أقصد الصيادين الآخرين الذين يأتون من كل مكان ، وكأن ليس فى الدنيا سوى الطيبة ، وهؤلاء الذين يأتون لا يعرفون سوى شيء واحد : القتل • كانوا يقتلون كل ما تقع عليه أعينهم • كانوا يقتلون اناث الحجل قبل ذكورها • لان الذكور وهى تجفل وتطير من الخوف ، كانت تخلف فى قلوب هؤلاء الصيادين خوفا كبيرا ، وبعد أن

يستعيدوا شجاعتهم تطير الاناث فيضربونها • والشيء نفسه يفعلونه بالغزلان والارانب وكل الحيوانات الاخرى ، وحين يعـــودون محملين بالصيد لا يكتفون بأن يعودوا الى هنا مرة أخرى ، انهم يدلون أصدقاءهم وأصدقاء أصدقائهم ، الى عاشر جد ، ويحضرون معهم أنواعا من السلاح لا يتصورها عقل ولا يقاومها صخر ، وبهذه الطريقة ، وسنة بعد أخرى اقفرت الطيبة • والآن تريدون من عســـاف أن يستولد لكم الطيـــور والحيوانات ولا أعرف أية عفاريت أخرى ؟ ماذا يستطيع عســـاف أن يفعل ؟ هل هو مسيح جديد ؟ هل هو الذى يبيض ويفقس ؟ » •

ومن جديد امتدت يده لتستقر على ظهر الكلب • وينظر الى الوجوه التى اعترتها الدهشة وخيم عليها الصمت :

ـ لم يخلق الصيد للاغنياء أو الذين يقتلهم الزهق والشبع ، لقـد خلق للفقراء ، وللذين لا يملكون خبز يومهم ، وعســـاف الذى قضى حياته كلها فى البرية لا يصيد فى مواسم الخير الا ما يملأ معدته ومعدة هذا الحيوان ، أما فى مواسم الجفاف ، ولكى لا يمـوت النـــاس فى الشوارع ، فيمكن أن يكون الصيد حلا ، كما هو الحال ونحن نستبدل خبز القمح بخبز الشعير ، لكن لا أحـد يفهم فى الطيبـة وفى غيرها من المدن والقرى ، أن الانسان فى هذه الايام يمتلك روحا شريرة لاتمتلكها الذئاب أو أية حيوانات أخرى ، ولهذا السبب نواجه اليوم الجـــوع ، وسيكون الجوع غدا أشد وأصعب • اننى أرى ذلك كما أراكم الآن ، واننى أخاف من الغد أكثر مما أخاف اليوم الذى أعيش فيه • وهذا ما صنعناه بأيدينا ! •

وبطريقة أقرب الى الفظاظة واليأس تحـرك عساف يريد أن ينهض ليمشى ، واذا كان كلامه قد خلف جوا متوترا ، شديد الحرج ، خاصة لاهل الطيبة تجاه ضيوفهم ، فان حركة غير عادية سرت فى الجميع • كانت حركة سريعة غامضة ، وفيها ذلك الاحتجاج اللذيذ الذي يشيع الاعتراف الضمني أن ما قاله ذلك المجنون هو الحقيقة ذاتها ، ولا يمكن لاحد أن ينكرها أو يتنكر لها ، وان ما قاله كان يجب أن يقال !

قال نعيم ، وقد جاء مع الضيوف من المدينة ، وتحـدث معهم كثيرا عن الصيد فى الطيبة ، وعن عساف ومقدرته الفائقة فى الصـــيد ، وتحدث أيضا عن غرابة طبعه ، قال ليخفف من كلام عساف :

ـ ما قلته ، يا عم عساف ، هو الحقيقة ، لكن أنت تعرف أى جنون يعيش فى قلب الصياد •

قال أحد الضيوف ، بلهجة مستسلمة ، وكأنه يدافع عن نفسه :

ـ لقد انقطع الصيد فى كل المنطقة ، وليس فى الطيبة وحدها !
ولاول مرة يقهقه عسـاف ، كما لم يفعل ذلك فى حياته الا مرات قليلة ، وقال بصوت ملء بالسخرية :
ـ ومن قال ان الطيبة وحدها يسكنها المجانين !
ولكى تفهم كلماته جيدا أضاف :
ـ لقد وصل الجنون الى كل مكان . وهذه الاسلحة الجديدة ما كان لها أن توجد ، حتى لو صنعها بعض المجانين فى الاماكن البعيدة ، ما كان لها أن تصل ، أو أن تستعمل فى الصيد . انها تقتـل كل شىء ولا تبقى شيئا !
ومن جديد عاد الى لهجة السخرية :
ـ اذا كانت المناطق الاخرى تنعم بالمياه والخضرة ، وتحصـل على ما تريده دون عناء ، لان منها الحكام والعسـكر ، فان الطيبة بلدة مسكينة ، اذا أمطرت الدنيا وجدت لقمتهـا ، واذا أمحلت مات الناس جوعا !
ومرة أخرى تغيرت لهجته :
ـ فيما مضى .. قبل سنوات كثيرة ، كنا نحارب الجـوع ونتغلب عليه بالطيور التى تأتى ، بالحيوانات التى تقترب من البلدة ، وكنـا نقاوم الجوع حين نأكل الجراد والجـرابيع ، أما هذه الايام فلم يبق شىء ، فاذا استمرت الحال هكذا فلن تمضى فترة قصيرة حتى تصـبح الطيبة ماوى للبوم والوطاويط !
قال ضيف آخر بلهجة خجولة وهو يستعرض صورة الطيبة :
ـ سمعت أن سدا سيبنى عندكم ، وان هذا السد سيروى مساحات واسعة ، أليس كذلك ؟
قال أحد المسنين :
ـ مثلما سمعت ، يا ولدى ، سمعنا .. الفرق بيننا وبينك ، اننا سمعنا هذا منذ وقت طويل ، ولقد قال لنا ذلك الكبـار فى المدينة ، لكن من يدرى !
وضحك الرجل بنوع من السخرية وهز رأسه بأسف .
قال مختار الجهة الشرقية :
ـ أتركوا الآن هموم القرية ، المهم أن ترتبوا مشوارا مناسبا للصيد، وهؤلاء الكرام لن ينسوا الطيبة ، ولن يوفروا أى جهد من أجل اقناع المسئولين لبناء السد بسرعة !

وتحول الجو فجأة • هجم أحد القادمين على عســـاف ، وقبله على رأسه ، وقال بطريقة مغرية :

ـ ستكون قائد الحملة يا بطرس ، وسوف نعود بصيد وفير غدا !

قال أحد المسنين مازحا :

ـ يجب أن تصيدوا صيدا كثيرا • ان الصيد وحده يمكن أن ينقـذ الطيبة من الموت !

وتحلقت المجموعة ، بمن فيهم الضيوف ، حول عســـاف ، وبدأ الاعداد لمشوار الغد •

قال عساف ليؤكد اتفاق الليلة الفائتة :

ـ لو ذهبنا الى الحجل فسوف نرجع بأيد فارغة • قتلوا الحجل لمسافة الف كيلو ، اما الكدرى فقد تنكح ، أصبح يخاف من الرجال والاشباح ، ويطير من مسافات بعيدة • لذلك يجب أن نذهب الى أقصى مكان ، وما دام معنا سيارات فسوف تطير كل مجموعة للاخرى •

توقف قليلا وأجال عينيه في الوجوه حوله • كانت العتمة تملأ كل شيء ، ولا تبين من خلالها سوى برقات سريعة للعيون أو توهج السجائر المشتعلة حين تمصها الشفاه قال عساف وهو يتحرك :

ـ أنتم وحظكم •• أنتم وشطارتكم !

فى غبشة الليل المتأخر كانت رياح ناعمة تملأ الكون وتخلف نوعا من البرودة اللذيذة ، والرجال الذين انحشروا فى السيارتين كانوا أميل الى الصمت والتأمل • صحيح انهم تبادلوا بعض الاحاديث السريعة ، لكنها كانت فى مجملها للتغلب على الصمت والسأم ، وفى محاولة لخلق تحريض متبادل وبدافع الامنيات قبل أى شيء ، وعساف الذى جلس فى سيارة الجيب ، وكانت فى المقدمة ، كان شديد الصمت ، ولم يجب على الاسئلة التى وجهت اليه الا بكلمات قليلة ، كان يكتفى بأن يقول :

ـ اصبروا وسوف نرى !

بين فترة وأخرى ، ولان عساف هو الذى يعرف الطريق ، كان يحدد ويصدر الاوامر :

ـ يمين •••

ـ يسار ••

ـ مرة أخرى الى اليسار !

والسائق الذى يستجيب بطاعة ودون اعتراض ، كان يخطىء بعض الاحيان ، فبدل أن يستدير الى اليسار ، كما طلب منه عساف ، كان يستدير الى اليمين ، لكن ما يكاد يفطن الى خطئه حتى يستدير بقوة ليأخذ الاتجاه الصحيح • والسيارة الخلفية ، التى كانت تسير على مسافة بعيدة نسبيا ، لتتجنب الغبار الكثيف المتطاير من الجيب ،

كانت ترى في كل حركة ، في كل التفاتة ، مفاجأة أو صيداً ، وكانت تتوقع باستمرار شيئاً . لكن عساف الذى عرف هذه الارض بشكل جيد ، كان هادئاً . وحتى سأله أحد الجالسين في المقعد الخلفي ان كان الوقت قد حان لاعداد البنادق ، أجاب بعصبية :

ـ الصبر مفتاح الفرج .. اصبر !

ـ ألا يحتمل أن نجد أرنبا أو ذئبا ؟

ـ وهل بقيت ارانب ؟

ـ أتصور أن هذه الارض أرض أرنب !

ـ لا تتصور !

وانقطع الحديث مرة أخرى . لم يكن يسمع خلال هذا الصمت سوى الدوى الصاخب لسيارة الجيب ، ولم تكن ترى الا المساحة التي يولدها النور القوى المنبعث من أضوائها .

انها احدى المرات القليلة التى يتوغل أبناء الطيبة وضيوفهم الى هذه المسافة البعيدة في الصحراء ، ومع كل ميل جديد تتغير طبيعة التربة ويتغير الهواء . فالمنطقة المحيطة بالطيبة متنوعة التضاريس ، متفاوتة أشد التفاوت ، اذ تبدأ ببعض الصخور السوداء ، وكأنها حدود الطيبة من هذه الناحية ، ثم تليها الكثبان الترابية التى تتخللها بعض الصخور الكلسية ، ثم الارض الخصبة الشديدة التنوع . وتتساوى في هذه الارض قطع الحجارة الصغيرة مع التربة . وتظل هكذا ، مع تفاوت بسيط ، مسافة طويلة ، حتى يقطعها واد ، وهذا الوادى يصبح خلال فصل الشتاء مجرى للسيول والامطار ، ولا يكاد الانسان يتجاوزه ، وينعطف فجأة ناحية الغرب ، ولمسافة ميل أو اثنين ، حتى تبدأ الصحراء تظهر .

تبدأ الصحراء أول الامر بخجل ، وكأنها تكونت فى التو واللحظة ، اذ لاتزال تحمل بعض ملامح الارض التى تجاورها ، لكن تدريجيا تتغير الارض ، لتصبح نسيجا واحدا متشابها وأقرب ما يكون الى راحة اليد ، من حيث الاستقامة ، مع التواءات صغيرة ومتفرقة ، وكثبان رملية تظهر وتغيب ، بين فترة وأخرى .

حين بدأت الصحراء ، قال عساف بصوت واضح :

ـ الذين على الشبابيك يمكن أن يملأوا بنادقهم ، هنا يمكن أن نجد أرنبا ضائعا لم تصله بعد طلقات المجانين !

وبطريقة آلية ، شديدة الاستجابة ، سمعت أصوات البنادق وهى تفتح ، ثم سمعت أصوات الخرطوش وهى تستقر . قال عساف ، وهو يلتفت الى الخلف ، ويكلم الرجل الذى جلس فى وسط المقعد الخلفى :

ـ حين نصل الى مكان الصيد الحقيقي سوف تجلس مكاني ٠٠ هنا !
سأل نعيم ، وهو يسوق السيارة ، وقد شعر بالخوف أن يتخلى عساف عنهم في هذه الصحراء الرهيبة :
ـ وأنت ٠٠ يا عم عساف ؟
لاول مرة ، منذ بداية الرحلة ، ابتسم عساف ، ونظر الى السائق ، ثم الى الرجال الذين يجلسون في المقعد الخلفي ٠ كانت بداية أضواء الفجر تنتشر بهدوء وتتسرب الى داخل السيارة ، وبعد أن تملى من وجوههم قال :
ـ أنا وكلبي على الارض ٠٠ وأنتم في السيارة ٠
سأله أحد الثلاثة ، وكان جالسا في الخلف :
ـ وكيف سنصيد ؟
قال عساف بسخرية :
ـ السيارة هي التي تصيد !
ولما أحس أن أحدا لم يفهم كلمة أضاف بلهجة مختلفة :
ـ بعد أن طارد الصيادون الطير وأتعبوه بدأ يخاف من كل شيء ، ولا يمكن أن يصاد الآن الا بالسيارة ٠
توقف قليلا ، تطلع حواليه ، وقال بلهجة جديدة :
ـ حين ترون رفا من الكدرى أو القطا يجب أن تغيروا عليه بأقصى سرعة ، وقبل أن يطير كله ، قبل أن يبتعد ، يمكن أن تأخذوا منه بعض الطيور !
سأل نعيم ٠ ومقود السيارة يضطرب بين يديه حين أمسك البندقية:
ـ وأنت يا عم عساف ؟
نظر اليه عساف نظرة مشجعة وأجاب :
ـ لا تخف ، سنبقى أنا والكلب على الارض ، والذى يفلت منكم ، الذى يطير باتجاهي ويقترب ، سوف يكون نصيبي !
بعد فترة من السير ، ولما أحس عساف انه وصل المكان المناسب ، نظر الى الافق نظرة دائرية واسعة ليتأكد ٠ وبحركة من يده ، مع غمغمة غير واضحة ، طلب من نعيم أن يقف ٠ ظن الجميع أن عساف رأى صيدا ، لان الوقفة السريعة التى وقفها نعيم خلقت شعورا قويا بالمفاجأة لكن عساف وهو يفتح الباب ، ويطلب من الكلب النزول ، قال بهدوء وكأنه يلقى موعظة :
ـ يجب أن نبقى فى دائرة ، وهذه الدائرة قد تتسع وقد تضيق ، لكنها تبقى دائرة ، والطير لن يبعد كثيرا ، ما عليكم الا أن تعرفوا

كيف تساعدون بعضكم ، ويجب أن يفهم جماعة السيارة الثانية هذا .
بعد قليل وصلت السيارة الثانية ، ووقفت بهدوء الى جانب الجيب، ولكي لا يترك عساف الامر غامضا ، قال بصوت عال :
ـ سنبقى أنا والكلب على الارض ، وأنتم ، كل في اتجاه ، تطاردون الطير ، والكدري في مثل هذا الوقت لا يخـاف وهو بطيء الطيران ، ويمكن أن تصل السيارة الى وسط الرف ولا يطير . واذا كنتم صيادين فسوف يكون الصيد كثيرا !
وأضاف كأنه يخاطب نفسه :
ـ أعتقد أن أحدا غيرنا لم يصل هذا المكان منذ فترة طويلة ، وما دام الطير غير مضروب فانه لا يجفل ، وسيكون الصيد كثيرا !
قال أحد أبناء الطيبة :
ـ الافضل أن تبقى معنا يا أبا ليلى . السيارة واسـعة ويمكن أن تتصيد على مراحل .
ـ الافضل أن أبقى على الارض ..
توقف لحظة ثم أضاف :
ـ والاخ يجلس هنا .
واشار الى الشخص الذى يجلس في وسط المقعد الخلفي ، يطلب منه أن يتحول ليجلس في مكانه !
وبعد فترة صمت قصيرة ، ولكي لا يترك مجـالا لاية مناقشة ، تابع :
ـ الافضل أن تكونوا في السيارات ، وأن تساعدوا بعضكم : كل سيارة تطير للسيارة الثانية ، وأنا على الارض ، لانني بهذه الطريقة أعرف كيف أصيد !
وخلال بضع دقائق ، وبتوضـيحات عديدة ومتزايدة ، خاصة من أبناء الطيبة الذين يرافقون الضيوف ، وبمشاركة قصـيرة ، لكنهـا حاسمة وشديدة الوضوح من عساف ، تم الاتفاق على كل شيء ، وقبل أن تتحرك السيارتان ، كل واحدة باتجاه ، مد نعيم الى عساف بعلبة من الخرطوش ، وأطفأ أنوار السيارة .
وبدأت رحلة الصيد !

هواء الصباح الطرى يملأ الكون بنعـــومة خائفة أقـــرب الى اللذة الراعشة ، وهذه اللذة تتسرب الى العظام مباشرة • أما المدى النسيح ، بلا نهاية ، فيولد رهبة خاصة لا تولدها الا حالات ولحظات معينة فى الكون والطبيعة • الصـــحراء المترامية ، بذلك اللون الرصاصى فى غبش الصباح ، لا يماثلها الى البحر • أما الشعور بالضآلة والانتهاء ، ثم الاندماج مرة أخرى ، فلا يتولد الا فى عصف الرياح المجنونة وفى الامطار الغزيرة التى تبدأ لكى لا تنتهى وشعور الظلمة الذى يلف كل شىء ، ويجعل المخلوق ، خاصة اذا كان بشرا ، ضئيلا متلاشيا ، فانه يطغى على الانسان فى الصحراء أكثر مما يطغى فى أى مكان آخـر ، حتى ليشعر الانسان انه متروك ووحيد ، الى درجة لا تخطر على باله • ومن شعور الوحدة يتولد الخوف والرهبة والانتظـــار ورغبة التخفى والصراخ والاتحاد مع شىء ما وآلاف المشاعر الاخرى التى تعجز عنها كل الكلمات •

حتى فى الاوقات التى يكون الانسان مع الآخرين ، يحس انه فى الصحراء وحيد ، وانه يواجه عدوا أقوى منه آلاف المرات ، وهـــذا العدو لا يمكن أن يقاوم ، لكن من الضرورى مصادقته ، أو الاحتيال عليه والاذعان الى شروطه •

هكذا كان شعور الصيادين وهم يواجهون هذا العـالم لاول مرة • حتى الذين جاءوا برغبة لا تقاوم للصيد ، وضمن أية شروط ، داخلهم الخوف واستقرت فى قلوبهم رهبة غامضة ، « ماذا لو ضعنا ؟ » ماذا لو غرزت السيارتان فى الرمال الصاخبة الملعونة ؟ » ، « وهذه الطيور •• ألم تجد مكانا غير هذا المكان البائس لتعيش فيه ؟ » •

فى مثل هذه الظروف يصبح الانسان ، مهما امتلك من القـوى ، ومهما عربدت فيه التحديات ، أقرب الى الضآلة • يتمنى لو كان أكثر عقلا ولم يدخل هذه التجربة • حتى الصيد فى هـــذا المكان الفسيح الموحش له طعم مختلف ، يصبح أقرب الى المغامرة الخطرة يمارســها الانسان برغبة اثبات القدرة والتأكد من الوجود اكثر مما تحمـل من لذة المطاردة والانتظار والانقضاض • ففى الصحراء يمتلك الانسـان

صفات تنفجر فى داخله فجأة ، يمتلك صفات التواضع ومحاولة التعرف والصبر ، ويتطلع الى كل ما حوله بحيرة أقرب الى التساؤل الحائر .

أما اذا انفجرت رفوف الكدرى كما تنفجر القنابل بين الارجل ، فان نفس الانسان يصبح مخلوقا آخر ، يتحول فجاة الى أبله يطارد ظله ، الى انسان يعارك نفسه ويريد أن يقضى عليها قبل أن يقضى على الغير ، فيغادره الخوف وتزول منه الرهبة ويتحول بين لحظة وأخرى الى وحش من نوع خاص . فاذا تجاوز هذه اللحظة ، ومضى عليها زمن طويل ، فانه ينظر اليها بنوع من الاعجاب يصل حد الغرور ، ويتساءل بزهو : « هل دخلت هذه التجربة وخرجت منها سالما ؟ » . « هل يشبه صيد الصحراء أى صيد آخر فى الكون ؟ » .

هكذا بدأت الرحلة ، وأية محاولة لاستعادة تلك اللحظات تقف عاجزة بائسة أمام هذا الملكوت الشامخ الذى يملأ كل شيء .

فالسيارتان حين بدأتا الحركة تملك كل من فيهما خوف مفاجيء ، ولم يستطع أى انسان من البشر السبعة الذين كانوا محشورين فيهما أن يقول شيئا ذكيا أو أن يتصرف تصرفا واضحا مقصودا .

كانت حركة السيارتين بطيئة أول الامر ، وبلا اتجاه ، وكان السائقان ، وكل واحد فى أى من السيارتين ، ينظر الى الآخرين ، ينظر الى الذين حوله وينظر الى السيارة الاخرى ، ولقد امتلأ بمشاعر الخوف والانتظار ، وتملكته فى لحظات معينة مشاعر الندم انه جاء الى هذا المكان والى هذا النوع من الصيد . ورغم ان المسافة بين السيارتين لم تكن بعيدة ، ولا تزيد عن بضعة مئات من الامتار ، فان حالة أقرب الى العجز سيطرت على الجميع فى الوقت الذى ظل عساف مزروعا فى الصحراء وشبحه يبتعد ويختفى كل لحظة . أما كلبه الذى كان واضحا خلال بعض الوقت ، فقد أخذ يبتعد ويصغر حتى تلاشى تماما .

فى احدى اللحظات العمياء ، وعلى غير انتظار ، انفجر رف من الكدرى ، بدا فى عتمة النور الاولى أشبه بالطيور الاسطورية . كان لانفجاره دوى هائل ، وظل هذا الدوى وقتا طويلا ، لا يملأ الآذان والعيون فقط . بل يستقر فى القلوب ويسيطر عليها . أما الطلقات الخائرة المرتجفة التى توالت ، الواحدة بعد الاخرى ، فلم تخلف شيئا سوى موجة من الدخان الازرق تلاشى تدريجيا مع رياح الصباح .

انها المفاجاة الاولى ، واذا كان كل واحد من الصيادين الذين كانوا فى سيارة الجيب ، والذين التقوا بهذا الرف ، قد امتلأ اصرارا وتملكته

مشاعر الخيبة ، فقد قال الجميع كلمات بائسة لتبرير الفشل • أما صيادو السيارة الاخرى فنظروا بحسرة وحقد ، وقرروا في أعماقهم أن لا يكونوا خائبين بهذا المقدار • والكلمات العرجاء التي تبادلها ركاب السيارة الجيب ، فيما بينهم ، لتبرير هـذه الخيبة ، قابلتها شتائم وتحديات من ركاب السيارة الاخرى !

انها التجربة الاولى ، ومثل كل التجارب الفاشلة ، وفي جميع المجالات ، يتولد في الانسان نوع من الاصرار أقرب ما يكون الى الرعونة • اذ ما كاد ذلك الرف يتلاشى في الافق مبتعدا حتى أسرعت السيارتان معا ، وخيم التحفز الحذر على الجميع • امتدت البنادق أكثر من السابق ، وبرقت العيون بالحقد •

وابناء الطيبة الذين عرفوا أنماطا كثيرة من الصيادين ، وكانوا شديدي الحذر والدقة في أن يطلقوا أية كلمات أو أوصاف لتقييم الصيادين الآخرين ، كانوا متأكدين من شيء واحد : من لا يعرف الصحراء ، من لم ير هذا الطير ، لابد أن يصاب بالخيبة بعد الرحلة الاولى •• لم يقولوا هذا الكلام مباشرة ، لكنهم كانوا واثقين من هذه القناعة ، خاصة وان أغلب الضيوف الذين جاءوا ، وادعوا كثيرا ، وأسرفوا في الحديث عن الطيور التي صادوها ، وعن الاماكن التي ذهبوا اليها ، اثبتت التجربة شيئا مختلفا ، اذ كثيرا ما أدعى الصيادون أن جبال الطيبة أقسى من أية جبال رأوها ، وان حجل الطيبة ملعون الى درجة لم يروا حجلا آخر مثله • كانوا يقولون ذلك حين يصعدون الى الجبال • أما اذا ذهبوا الى ممرات الترغل ، وعادوا بصيد قليل ، فكانوا يعزون ذلك الى أسباب وهمية وأقرب الى الغباء • والآن ••• في هذه الصحراء الفسيحة ، هذا الطير الذي يرونه ينفجر أمامهم ويثير استفزازهم فلا يعرفون أية أكاذيب يمكن أن يقولوها لتفسير هذه الخيبة ؟ ولكنها عادة من عادات الصيادين حين يندفعون برعونة زائدة الى التحدي • ثم التبرير وأخيرا الى الكذب •

بعد الرف الاول • طار رف ثان • ومثلما واجهت سيارة الجيب عددا من الرفوف وطار بعضها حول السيارة ، وكأنه كان داخل قفص ثم انفلت فجأة ، فان السيارة الاخرى قابلت عددا مماثلا ، وربما أكثر قليلا • واذا كان لصيادي هذه السيارة بعض المعاذير ، حول ضيق الشبابيك ، وعدم امكانية التحرك بسهولة ، فان صيادي سيارة الجيب كانوا أقل قدرة على التبرير •

كانت السيارتان ،وهما تبحثان عن دائرة لتدورا فيها ، تمتلئان بنوع

من الحرج أقرب الى الخجل ، وفى بعض اللحظات أقرب الى الخوف ·
لبعد أكثر من ساعة ، وبعد أن طارت عشرات الرفوف من الكدرى ،
وكانت الحصيلة ثلاثة طيور فى الفولكس فاكن ، وطيرين فى سيارة
الجيب ، تملكت الجميع رغبة فى توسيع قطر الدائرة ، فى محاولة
لاكتشاف مجال واسع والعودة بصيد أوفر · كانوا يشعرون بنوع من
الخجل ، وكان كل واحد متأكدا انهم لو عادوا الى عساف بهذه
الحصيلة ، بعد كل الطلقات المجنونة التى ملأت الفضاء ، فسوف
يسخر منهم · وهذا الشعور لم يقتصر على ركاب سيارة واحدة ، أو
على واحد من الصيادين فقط ، كان شعورا ضمنيا صامتا ، لم يستطع
أحد أن يقوله ، لكن كل واحد تصرف بدافع منه وتحت تأثيره · حتى
الرغبة أوالكلمة ، التى يقولها أى واحد فى الذهاب الى هذا المكان ،
أو ذلك لم تكن تجد اعتراضا من أحد · كان الجميع يمتلىء خوفا ،
خاصة وان كل واحد قدر أن عساف قد اصطاد مئات الطيور !

هذه المشاعر رغم قوتها وسيطرتها الغامضة ، فان مشاعر أخرى
كانت ترفع رأسها بين لحظة وأخرى : الخوف من الصحراء ، والتيه
فى هذا البحر القاسى الذى ليس له بداية وليس له نهاية !

حين ارتفعت الشمس فى السماء بضعة أذرع ، وارتفعت معها
الحرارة وارتفع الغبار ، شعر الجميع برغبة اللقاء مرة أخرى ، مهما
بدا هذا اللقاء قاسيا مريرا ، خاصة وان عساف كان قد نبههم ان
الكدرى مع تقدم النهار يرحل ، وانه يذهب الى أماكن بعيدة بحثا عن
الماء والطعام ، وان الصيد خلال النهار من الصعوبة وعدم الجدوى الى
درجة كبيرة ·

وبطريقة غامضة مليئة بالتردد بدأت السيارتان تتجهان الى منتصف
الدائرة · واذا كان لكل مكان فى الدنيا دائرة ، ولها منتصف ، فان
الصحراء ملعونة الى درجة الرجم ، لان كل ذرة منها دائرة ، ولان كل
مكان منتصف الدائرة · ومع ذلك ، وبمعرفة أبناء الطيبة باتجاه
الريح ، وتذكرهم أن ريحا غريبة كانت فى بداية الرحلة ، بدأت
الدائرة تضيق تدريجيا ، وبعد ساعة من البحث ، ومن النظر المدقق ،
رأت سيارة الجيب زوالا بين السواد والزرقة ، ودون تردد قال أحد
أبناء الطيبة :

ــ عساف ·· هذا هو عساف !

وبلهفة أقرب الى الوجد ، ودون تساؤل أو انتظار ، اتجهت السيارة
نحوه ، وبعد دقائق كانت السيارة الاخرى قد وصلت ·

كان عساف منبطحا على الرمل ، والكلب قريب منه ، وكانت البندقية ملقاه الى جانبه ، وكأنها لا تعنيه • كان يعبث بالرمل ويبتسم ابتسامة خفيفة ، أما الطيور التى اصطادها فقد كومها مثل تل صغير الى جانبه ، وكانت مناقيرها باتجاه واحد !

حين نظروا الى تل الطيور أصيبوا بذهول حقيقى • كانت بالنسبة لهم تلا مستحيلا ، رقما مستحيلا ، أما حين بدأوا بانزال الطيور من السيارتين فقد نظر اليها عساف بدهشة أقرب الى الاستغراب ، لكنه بسرعة لملم دهشته ، وقال بطريقة أبوية للتخفيف عنهم :

ــ الصيد فى السيارة يحتاج الى التعود ، والرفوف التى كانت تطير من عندكم كانت تأتى الى هنا !

أما حين سأله أحد الضيوف عن عدد الطيور التى صادها فقد قال بتواضع :

ــ حوالى العشرين •• لم أعدها •

ولم يسأل عن العدد الذى صادوه ، كان همه الاساسى أن يتأكد اذا قابلوا رفوفا كثيرة أم لا ؟ واذا كانت قريبة أم بعيدة ، وهل ضربت من قبل أم انها طارت بعد أن وصلوا اليها •

عند هذا الحد كان من الممكن أن تنتهى رحلة الصيد ، ولو ترك الامر لابناء الطيبة أو لعساف لاقترح عليهم أن يعودوا ، والى جانب صخرة فى الوادى الذى اجتازوه يمكن أن يستريحوا • وأن يأكلوا • وكان من الممكن أن يقال ان هذا الصيد كاف ، وسوف تنظم رحلة صيد ثانية، فى مرة أخرى • لكن الامور ، أغلب الاحيان ، تسير بطريق لا يقدره الانسان ولا يتوقعه ، واذا كان الضيوف هم الذين يحكمون ، وهم الذين يقررون ، فان أهل الطيبة امتلكوا خلقا رفيعا بحيث لا يمكن أن يفصحوا عما يريدونه مباشرة ، وعساف الذى قال مجاملة ولكى يبعد أية امكانية للابقاء :

ــ الصيد انتهى ، فمنذ الان وحتى الغروب ، لن نجد رفا واحدا ، وبعد أن تبادل ابناء الطيبة النظر فيما بينهم • ومع عساف ، نظروا فى وجوه الضيوف ، ثم اقترح أحدهم اقتراحا وجد هوى عند الضيوف دون تردد :

ــ يمكن أن نذهب الآن حيث يريد عساف ، وبعد أن نتغدى ونستريح نقوم بمشوار صغير قبل الغروب ، وبعدها نعود الى الطيبة •

- ١٣ -

لم تكن الجلسة ، في الوادى ، تحت الصخور ، مريحة ، اذ رغم رطوبة المكان ، فقد كانت ريح الصحراء شديدة اللفح والحرارة ، وكانت تحمل معها ، بين فترة واخرى ، ذرات من الرمال تسف وتتكوم على المنحدرات الواطئة ، غير المنتظمة ، والتى تشكل مجرى السيول أيام الشتاء •

فى هذه الجلسة ، والتى شرب خلالها الجميع ، وتحدثوا عن أشياء لا حصر لها ، كان عساف فى البداية أقرب الى الصمت ، وفى المرات القليلة التى تكلم ، تحدث بشكل غير مفهوم ، وكأنه يحدث نفسه • اما عندما سئل عن الحيوانات التى صادها ، وفى أية أماكن ، فقد اكتفى بأن يقول :

ـ ما فائدة الحديث عن الاشياء الماضية ، ما دام الانسان غير قادر الآن على أن يصطاد أى حيوان ؟!

وحين ألحوا عليه أن يحدثهم عن أكثر مرة صاد فيها ، وعن عدد الطيور والارانب التى صادها ، قال بحدة :

ـ لا تنظروا الى كوحش • أنا انسان ، نعم أنسان مثلى مثلكم ، وليس بينى وبين أى مخلوق عداء من أى نوع ، فاذا كان بعض الطيور والحيوانات تغرينى وأطاردها ، لاننى أشعر بحاجة أكثر مما أشعر بلذة ، وحتى لو كانت هناك لذة ، فانها لا تصل بالانسان الى حدود الابادة والفتك ، حتى الذى يرغب بامرأة ، ويريد أن يعتصرها بين يديه الى الابد ،.فانه غير قادر أن يفعل ذلك بلا حدود ، أما اذا كان أحمق ، واذا فعل شيئا لا يناسب الطبيعة البشرية ، فلابد أن ينتهى بشكل ما • وأنا •• عساف الذى لا يعرفه أهل الطيبة ، الا أنها فى البرارى ، ولا يلاحق الا الطيور والحيوانات ، أنا عساف الفهد ، لا أرغب فى الصيد لمجرد القتل ولا أصيد أكثر مما يجب الا فى الاوقات الضرورية •

كان يريد أن يتحدث أكثر ، وبطريقة أفضل ، لكنه لم يستطع • أما الافكار التى دارت فى رأسه وملأت عقله وهو مستلق على جنبه ، وكلبه بقربه ، فقد كانت كثيرة الى درجة لا يستطيع أن يحاصرها ،

أن يقولها ، وحتى لو اراد أن يتكلم فان كلماته تبدو غامضة فجة وقد لا يفهمهـــا أحد • وحين شرب كأسا جديدة وامتلأ نشوة شـــعر انه يستطيع أن يتكلم بشكل أفضل ، خاصة وان الآخرين قد تكلموا دون أن يطلب منهم أحد ذلك ، ودون أن يكون لكلامهم أى معنى أو ضرورة• لقد تكلموا بتلك الطريقة الفخمة المليئة بالاكاذيب ، والتى لا يتقنها الا المتعلمون وأبناء المدن • فكر أكثر من مرة أن يصرخ ، أن يضـحك بسخرية ، لكنه ابتلع أكثر ما كان يريد أن يقوله ، واكتفى بأن ينظر الى الوجوه ، وأن يراقب التصرفات •

كان عساف في ذلك اليوم حزينا الى درجة لا يتذكر انه حزن بهذا المقدار ، وشعر أن ثقلا أقرب الي الصخرة يجثم على صـــــدره ، واذا كان قد تعود أن يصدر الاوامر الى الصيادين الاغرار ، وأن يقودهم في المسارب الضيقة ويتقدمهم فى المعاصي ، ليثبت لهم بطـــريقة ما انهم ما زالوا بحاجة الي وقت طويل لكى يتعلموا معنى الصيد ، وأن يتصرفوا بطريقة مليئة بالحكمة والذكاء ، ويميزوا بين الطيور التى تصاد وتلك التى يجب أن تترك لتعيش •• اذا كان قد تعود ذلك ومارسه بمكر ، ولاسباب غامضة بعض الاحيان ، فلقد كان فى هــذا اليوم أقرب الي الاستسلام والياس ، وكان مستعدا لان يفعل ما يريده الآخرون •

لو أن عساف تماسك في لحظة معينة ، لو انه رفض باصرار ـ مثلما تعود ـ الاستجابة الى رعونة الشباب وخفتهم ، لو أن الحزن فارقه واليأس لم يسيطر عليه ، لو أن الخمرة لم تتصاعد أبخرتهـا القـوية الحادة الى الرءوس فى هذا اليوم الصيفى ، لو أن المكان كان غير هــذا المكان ، لما حصل شيء ، لكن قوة غامضة ، أقرب الى البلاهة ، ولعلها حكيمة بمقدار لا يدركه عقل الانسان ، هى التى قررت كل شيء !

فقبل أن ينتصف النهـــار ، وبعد أن استراحت القـافلة أكثر من ساعتين بدا الزمن لضيوف الطيبة الذين أتوا من المدينة ، شيئا مختلفا لما يحسه أهل الطيبة ، ولمن عاش فى مثل هذه الاماكن • اذ ما كاد يقترح أحدهم العودة الى الصيد ، حتى اســـتجاب الآخرون بسرعة وسهولة ، وكأنهم اتفقوا على ذلك من قبل • وعساف الذى نظر الى أبناء الطيبة نظرة تساؤل ، وجد فى عيون هؤلاء استسلاما حائرا • وبدا انهم غير قادرين على اتخاذ أى قرار ، وانهم يمثلون دورا أقـرب الى الحماقة • ويستجيبون لاية رغبه يطلبها هؤلاء الافندية •

بعد تردد لم يطل ، نهض عساف وبلهجة مليئة بالسخرية والتحدى، قال يخاطب كلبه :

ـ لا يتعلم الانسان الا بالتجربة ، أما الحيوانات فانها تتعلم أشياء كثيرة ثم تورثها الى أولادها وأحفادها ،وبهذه الطريقة تدافع عن نفسها وتواصل الحياة ، أما الانسان ..

وضحك بسخرية ، وبلا مناقشات طويلة اختار عساف مكانا جديدا ، قال ليقنع نفسه :

ـ قد لا تكون الطيور هناك مضروبة ، وقد نجد بعض الاشواك تستظل بها .. ونحن وما قسم لنا !

وبالطريقة نفسها ، وبالاصرار نفسه ، حين وصل الى المكان الذى يراه مناسبا للصيد ، أوقف السيارة وأنزل كلبه ، ثم نزل .

لم يتكلم هذه المرة أية كلمة . لم يكرر بأية موعظة . اما حين قال أحد أبناء الطيبة بصوت عال لينبه الجميع :

ـ سنلتقى هنا بعد ساعة واقصى حد ساعتين ، لان الطريق الى الطيبة طويل ، ويجب أن نصل مبكرين .

حين قال الرجل هذه الكلمات ، هز عساف رأسه دلالة الموافقة ، ولوح بيده بطريقة دائرية ، وقد فهمت تلك الحركة على أنه سيبقى فى منتصف الدائرة ، وفهمت على أنها تحية .

الشمس تنزلق من السماء مثل رصاص مصهور ، والرمل أكثر سخونة من الجمر ، حتى الكلب وهو ينقل أقدامه تصدر عنه أصوات ضعيفة أقرب الى الاستغاثة أو الاحتجاج أو كأنه يمشي على أشواك حادة أو زجاج مكسور . وحين أقلعت السيارتان بسرعة خلفتا وراءهما سحابة كبيرة من الغبار لفت عساف فبدا جزءا من الصحراء الممتدة بلا انتهاء . أما الكلب فقد عوى احتجاجا وركض لمسافة وراء احدى السيارتين ، ثم عاد ببطء .

واذا كانت الطبيعة بجبروتها غير المحدود ، في البحار والمحيطات ، على قمم الجبال وفي أعماق الاودية ، في الاصقاع المتجمدة وفي ظلمة الغابات .. اذا كانت الطبيعة في كل هذه الاماكن تنذر بالتحول وتبعث باشارات من نوع ما ، فان ذلك العنفوان الداخلي لم يعد يقوى على الاحتمال وسوف يقلب جلده في اللحظة التالية . فالصحراء الغامضة القاسية الموحشة المفاجئة تتجاوز قوانين الطبيعة لتثبت هذه القوانين . فلم تمض ساعة حتى جنت الدنيا ، هبت ريح قوية ،عاصفة غيرت كل شيء . كانت الزوابع تدفع اكثبان ارملية وتسفها كما تفعل الرياح بالامواج ، فتتدحرج الرمال بسرعة كما لو أنها كتل من القطن الهش أو بقايا أوراق محترقة ، حتى أن الانسان ما أن يستدير قليلا ليتقي هذا الجنون المفاجيء حتى يمتلىء حلقه وتمتلىء عيناه بذلك الجمر الصغير الناعم وكأنه سقط من نار لا تعرف التوقف أو الانطفاء.

ان ما حصل في ذلك اليوم الصيفي ، في أعماق الصحراء ، وعلى مسافة غير قصيرة من الطيبة ، لا يمكن أن يستبعده أحد دون أن يبكي ، فالخوف الذي ملأ الدنيا خلال تلك الساعات كان من القوة والذهول الى درجة أن لا أحد يستطيع أن يتذكر ما حصل ،. حتى الكلمات تبدو باهتة عاجزة ، ولا تعبر عن أي شيء . وأبناء الطيبة الذين كانوا يعرفون بغريزتهم طبيعة الصحراء وقسوتها ، من رائحة الهواء ، من لمعان السماء القاسي ، من الزوابع التي تجاوزت الوادي وعبرت السهل كله حتى وصلت الى الطيبة .. ان هؤلاء لم يصدقوا الهول الذي يرونه أمام عيونهم . انه شيء لم يشهدوا مثله طيلة

حياتهم • والضيوف الذين أصابهم الهلع ، والذين فقدوا القـدرة على التصرف ، تحولوا الى مجموعة من الدمى المتوسـلة البـاكية ، كانوا يريدون شيئا واحدا : أن لا يموتوا !

وفى غمرة الخوف يفقد البشر القدرة على التصرف • فبـدل أن يوقفوا السيارات وينتظروا ، كانت العواصـف الرملية القاسـية هى التى تحركهم ، هى التى تقـودهم • وفى المرات القليلة التى توقفوا وجاءت الزوابع حاملة الرمال الساخنة ، صرخوا برعب ، وشـعروا بالموت يطبق على رقابهم ، ودون انتظار وبدوافع غريزية حاولوا الهرب واذا كانت الجيب قد ظلت محتفظة بقوتها وقدرتها على السيطرة ، فان السيارة الاخرى بدت مثل سلحفاة ضالة لا تعـرف الى أين تذهب أو متى تموت • وحين قال أحد أبنـاء الطيبة بأن الامر أصـبح خطيرا الى درجة تتطلب بقاء السيارتين معا ، فقد شعر الجميـع بنـوع من الراحة • ولم يكتف سائق الفولكس فاكن بأن يبقى قريبا ، بل أصر على أن يمشى قبل الجيب ، وعلى مسافة أمتار قليلة منها •

انتظار الموت فى هذه الصحراء أصـعب من الموت آلاف المـرات • فالموت هنا لا يأتى فجأة ، لا يأتى متنكرا ، ولا يأتى بسرعة ويقضى على كل شىء ، وانما يكشر عن انيابه فى البداية ثم يقف على شـبابيك السيارات ، وبين لحظة واخرى يعربد ، يصرخ ، يلطم الوجوه ، يسف حفنة من الرمال فى الافواه والعيون ، وبعد أن يمل من هـذا المزاح يتراجع قليلا ، ليقعى مثل ذئب ، انتظارا لجولة أخـرى • والجـولة الاخرى لا تنتظر طويلا ، اذ تصعد مثل البخـار مسرعة جارفة قوية ، فتولد يبوسة فى الحلوق ، هلعا فى العيون ، انتظارا آخر قاسـيا ممضا • بالخشونة الكاوية نفسها ، بالجبروت نفسه الذى لا يعـرف التراجع يدق الشبابيك مرة أخرى دقات قوية متواصلة •

وبين انتظار وانتظار يموت الانسان ، يموت ألف مرة ، يفقد الثقة، تتلاشى ارادته ، يسقط ، ينهض ، يترنح ، يمتلىء حلقه بأدعية خائفة لا يعرف كيف أتت ، يصرخ دون صـوت ، ينظر فى وجوه الآخرين ليرى وجهه ، يتذكر ، يقاوم ، ينهار ، يسقط • يموت مرة أخرى ، ينهض من الموت ، يتأمل الامتـار القليلـة التى يمكن أن ترى عبر الشبابيك ، يلامس حبات الرمل المتسربة فى كل مكان ، يملأ حلقـه بجرعة ماء ويستقبها لاطول فترة لعلها تمده بمزيد من القـوة على المقاومة ، على الصمود ، يفقد القدرة على الحديث ، يفقد القـدرة على ابتلاع الماء ، يتحول الماء الى ملح ، يتحول الزبد الى زبد ، يريد أن

يصرخ ، أن يموت تماما ، يريد أن تنشق الارض فجأة وتبتلعه ، يريد ماء ،ظلا ٠٠ وينتظر !

حتى الزمن في الصحراء يكتسب معنى آخر ٠ يتحـــول الى ذرات صغيرة ، الثانيـــة ، والدقيقة هي كل الزمن ٠ ثم يبـــدأ ذلك الزمن بالتفتت الى ما لا نهاية ، كالصحراء بلا نهاية . ويطبق كالخيط المبلول القاسي ، يشد دون توقف على الرقبة ، يحزها لكن دون أن يقطعها أو أن يبقيها ، ويظل هكذا موتا مؤكدا منتظرا ســاخرا مؤجلا ، فيحس الانسان بالاختناق ، وتتصاعد ضربات القلب ، وترتفع درجات الحرارة ويتحول لون الوجوه الى الزرقة ، ولا يستطيع أن ينظـر الواحد الى الآخر خوف الانفجار أو العويل ٠

والحرارة المنبعثة من الارض أو المنزلقة من شمس السماء المتوهجة لا تترك للانسان لحظة من التـــوازن والتفكير ٠ فالظلمة حين تطبق تجعل الانسان يحس بضآلة متناهية ، ويتضاعف رعبه مئات المرات ٠

فبعد انتظار طويل ، لعل الريح تبدأ وتصبح الرؤية ممكنة ، بدت الشمس تميـــل نحو الغروب ، لم يرها تفعل ذلك ، لم يرها أحد تنزلق مثلما تفعل في البحر ، لكن من النور البارت المتداخل مع ذرات الرمال ، من ذلك الانكسار التدريجي في الحرارة ، يتولد شـعور ان الشمس أخذت هذا السمت بعد أن ظلت مثـل حبل المشــنقة فوق الرءوس طوال ساعات النهار ٠

أي حوار في مثل هذه اللحظات مســتحيل ، لان الصراعات داخل قلب كل انسان كانت من الكثافة والتناقض الى درجة يمكن أن تولد الشيء ونقيضه ، وتدفع الانسان لان يفعل الشيء ونقيضه ٠ فالحرارة المنبعثة من الشمس ، والتي كانت أشد الاعداء ، بدت حنونا مضيئة حين أخذت الشمس ذلك الميل منذرة بالانتهــــاء ٠ أما النـور الوهاج الذي كان ينفجر من كل الاشياء خلال ساعات النهار كلها ، فقد أصبح حلما ضائعا والظلمة تطبق تدريجيـــا ، والرياح التي كانت تحـــدد الاتجاهات ويمكن أن تقود الانســان الى مكان معين ، تحولت في ظلمة المساء الاولى الى عويل ولطمات عمياء ٠

انه الموت ولا شيء غيره ، هكذا قال واحد في نفسه ، والانسان في لحظات اليأس المطلقة حين يوافق على كل شيء ٠ حتى على الموت ، فانه يريده صاعقا كاملا نهائيا ، أما ذلك العري الحاد الناضح في كل شيء، الدمار الذي يفتت الخلايا بقسوة تشبه النهش ، فان هذا النـوع من الموت لا تمتلكه سوى الصحراء في الليل ، وفي فيضـان الرياح الذي

لا يعرف التوقف أو الراحة •
هذا هو الانسان ، ذلك المخلوق الضئيل المتلاشى ، فى مواجهة قوة غاشمة لا تدمره ولا تتركه !
قال أحد أبناء الطيبة بصوت مخنوق :
ـ الله يساعدك يا عساف •
قال الذى جلس الى جانب السائق مكان عساف :
ـ صحيح ، اين عساف ؟
وغاصت الكلمات فى الافواه مرة أخرى وخيم الصمت ، لكنه ذلك الصمت المدوى الذى ينفجر فى كل لحظة ، فى كل شىء ، والذى تسمع ولولته فى كل الخلايا •
فى وقت ما ، ولا أحد يمكن أن يحدد متى كان ذلك الوقت ، وكم من الزمن قد مر ، بدأت الريح تتراجع ، وبدأ عصف الرمال يخف شيئا فشيئا ، وان ظلت السماء مكتنزة بذلك السواد الثقيل القاهر ، وحين بدأ سائق السيارة الجيب يشعل الاضواء ويطفئها ، فقد بدت حركة ذكية مليئة بالمعانى • قال الجالس الى جانبه :
ـ لابد أن يرانا أحد ويأتى لانقاذنا !
قال ابن الطيبة الذى يجلس فى المقعد الخلفى وراء السائق :
ـ يجب أن تشغل السيارة وتدور عدة مرات لعل عساف يرانا أو نراه فنذهب اليه أو يأتى الينا !
دون مناقشة ودون تساؤل ، بدأت السيارة تدور مثل حيوان مربوط ، وبين لحظة وأخرى ، كان السائق يشعل النور ويطفئه ، لعل شيئا يحصل وتكون فيه النجاة •
قال ابن الطيبة :
ـ اذا وجدنا عساف يمكن أن ينقذنا ونعود الى الطيبة بسهولة ، أما اذا لم نجده •
وسكت • تطلعت اليه العيون دون أن تراه ، واذا كانت الظلمة قد خلقت خوفا من نوع جديد ، واذا كان الشعور بالنجاة بدا مثل خفقات قلب مريض ، فان هذه الكلمات انفجرت داخل السيارة وكأنها نهاية كل شىء !

يقول الذين وصلوا عصر اليوم التالي فى ثلاث سيارات ، أحداها لسلاح البادية ، وعثروا على السيارتين ، انهم وجدوا أغلب الرجال بين الحياة والموت • كان عدد منهم فاقدا الوعى ، وكان الآخرون فى حالة من الاعياء الشديد • أما سيارة الفولكس فاكن فقد انغرزت اطاراتها الخلفية في الرمال وأصبحت فى حاله من الانهاك الى درجة أنها لم تعد قادرة على الحركة ، ووجدوا الحبل الذى حاولت الجيب استعماله لسحبها قد تقطع فى عدة مواضع • أما كمية المياه التى كانت فى السيارتين فقد نفدت تماما ، ولم تبق الا أوان فارغة يخش فيها الرمل ويقول هؤلاء انهم لو تأخروا ساعة أو أقل لمات جميع من كان فى السيارتين • أما حين بدأوا يرشون على وجوه الرجال الماء ، وبدأوا يكلمونهم ، فلم يستطع أى من الرجال السبعة أن يتكلم كلاما واضحا، كانت غمغمات أقرب الى أصوات الحيوانات • ولقد بكى اثنان من الرجال السبعة ، احدهما من أبناء الطيبة ، ولم تعرف أبدا أسباب ذلك البكاء ، وهل كانت تعبيرا عن فرح أو عن شىء آخر !

وبضع دقائق ، ورغم الالحاح فى السؤال عن عساف ، لم يستطع أحد أن يجيب •

لكن قائد الرجال الذين كانوا في السيارة العسكرية قال بلهجة لا تقبل المناقشة :

ـ ابقوا فى أماكنكم • لا تتحركوا أبدا ، وسوف نجد عساف

قال أحد رجال البادية وكأنه يطمئن الجميع :

ـ لابد أن يكون قريبا ، وسنجده !

وبخفة متناهية قفز الى البيك آب ، دون أن يحس أحد ، مختار المنطقة الشرقية ، وأخذ مكانا حصينا قريبا من القمرة ، وأمسك بالحديد الامامى بقوة •

كانت الصحراء الممتدة بصفرتها المائلة الى زرقة مثل حلقة لا أفق لها ولا نهاية • وحين انطلقت السيارة بدوى مفاجىء صرخ الذى بكى من الضيوف • وركض وراءها ، ثم سقط على الارض وأخذ بالعويل ، وحتى حين حمل وأعيد الى السيارة وأعطى قطرات من الماء ، ظلت

دموعه تتســاقط دون توقف ، ثم غطى وجهه بيديه وأجهش ، وظل كذلك فترة طويلة ·

كان الحشد الكبير ينتظر ، وكان الامل لا يزال قويا في العثور على عساف · واذا كان الصمت ، في حالات كثيرة ، أفضل وسيلة للتعبير، فقد ظلت أسئلة الرجال الذين جاءوا من الطيبة بلا اجابة ، وان كانت اجابتها واضحة قوية في الوجوه ، في الحركات ، في الشفاه المتشققة المفطورة · أما حين سقطت بعض الدموع فقد كف الجميع عن الكلام · وأنشدت العيون الى كل الاتجاهات لعلها ترى بشرا أو زوالا ، وكان أمل واحد ، مثل نسمة باردة ، يخفق في كل صدر ، وارتفعت ابتهالات لا تخطر على بال ولا نهاية ، وكانت أقرب الى التمتمة وتشبه الدعاء ، أن يكون عساف حيا وان يجدوه ·

لقد انبثقت في تلك اللحظات آلاف الصور في أذهان الرجال الذين ينتظرون ، وتلك الصور ، وان بدت متداخلة مضطربة ، وأقـرب الى الحلم ، فان صورة عساف كانت أشدها وضوحا وأكثرها بياضا : حين كان يعود بعشرات الطيور ويوزعها بمهارة لا تخطىء ، حين كان يمزق بعض المواضع من أحذيته وثيابه ، حين كان يجمع الخرطوش الفارغ من الصيادين الاغرار ويتأمله بعناية ثم يحضره بعناية أكثر ليستعمله في اليوم التالي ويتأكد بنفسه من قوته ، ثم لما تخلى نهائيا عن الخرطوش المصنوع من الورق المقوى واستعاض عنه بخرطوش النحاس ، وكيف كان يحتفظ ببعض هذه الخراطيش في جيب جلدي صغير لصـقه على صدره ، كيف كانت الطلقات تبدو شديدة اللمعان ولا يستعملها ، كما يقول ويؤكد ، الا « لقتل الوحوش » ــ ان هذه الصــور ، وعشرات غيرها ، تمر في هذه اللحظات مثل شريط طويل ، وكل انسان متأكد أن عساف ستنشق عنه الارض وينفجر فجأة كما تنفجـر الطلقـة · وأهل الطيبة الذين تعودوا على عساف وغياباته التي قد تطـول يومين أو ثلاثة ، حين تحاصره الثلوج أو يفيض الوادى ، اذا كانوا قد تعودوا عليه وألفوا كل شيء يصدر عنه ، فقد كانوا متأكـدين تماما من شيء واحد : سينفجر عساف بينهم ، وان السيارة حين تعود يائسة مثقلة بالخيبة والحزن ستجده وسط المجموعة ، يتحــدث بتلك الطـريقة المبهمة ، الحافلة بالاصوات غير المفهومة ، عن رياح البارحة وعن جنون الطبيعة وغدر الصحراء · ويجب أن يضيف في النهاية : الانسان أقوى من الطبيعة ، ويعرف كيف يروضها أو يحتال عليها !

كانت الافكار والصور تتلاحق ، وكانت النسمات الطرية التي بدأت

تهب مع ميلان الشمس نحو الغروب تولد أملا يقوى كل لحظة ، وتولد بأسا يقوى كل لحظة ، وفي خضم الافكار والصــور ، ومع كل نسمة جديدة كانت العيون تدور ، والصمت يقـــوى • الى أن جاءت تلك الصرخة المفاجئة المدوية :

ـ هذه هي السيارة !

لحظات قاسية من التوتر أقسى من أية لحظات أخرى واشد عـذابا من عمر بأكمله • لم يبق أحد في مكانه ، حتى أولئك الرجال المتعبون، والذين لفت على رءوسهم الخرق المبللة ، شـعروا بنـوع من التحـدى والقوة ، فمن لم يستطع النهوض والركض مع الآخرين تجاه السيارة ، تحرك في مكانه أو غير جلسته ليشهد عساف وهو ينزل •

كانت وجوه الرجال وهي تطل من فوق شديدة القسوة والصراحة، وللحظات والسيارة تقترب ثم تتوقف ، تأكد الجميع انهم لم يجـدوا عساف • لقد غمرته الرمال وابتلعته الارض ولم يبق منه أثر ، لـكن فجأة ، والمختار يمسك الحديد الامامي ، ويهزه بعصبية أول الامر ، ثم يصرخ ويشير الى الخلف •

ترك الرجال يستديرون حول السيارة • والتفت بصلابة وبطء ،حتى اذا نظروا ورأوا عساف هكـــذا •• صرخ ، كان صراخه أقـرب الى الشتيمة :

ـ راح • عساف •• ونحن الذين قتلناه • راح الغالى •

كان منظرا فاجعا مليئا بكآبة خرساء واقرب الى عدم التصديق •

كان عساف في قاع البيك آب ، كان هناك ، كان يابسا متخشـبا وقد تقلصـت عضـلات وجهه وبدت على أطراف الشفتين ابتسامة هى مزيج من الالم واليأس والسخرية ، وبدا كأنه يريد أن يتكلم ! وحين استمر المختار في الهياج ثم البكاء ، واتضحت الصــورة حادة نازفة متجبرة ، سمعت أصوات نشيج مكتوم ، وتساقطت الدموع • كان لسقوط الدموع رنين قوى موجع وكأنه نهاية لفترة طويلة من الزمان !

كيف يمكن للبشر أن يصمتوا بهذا المقدار ولهذه الفترة الطويلة ؟ كيف يستطيعون نسيان جميع الكلمات والاصوات التى بدأوا الحياة بها ، وهم ينقذفون من الارحام ؟

كيف كيف يمكن ذلك ؟

طوال الطريق ، الذى استمر اكثر من ساعتين ، ظلوا صامتين !

والمختار الذى ظل واقفا فى مكانه ، قابضا بقوة على حديد القمرة ، وناظرا الى الامام باستمرار ، طلب من قائد السيارة العسكرية التابعة لقوة البادية ، بكلمات متلجلجة ، لكن واضحة أيضا ، أن يذهب الجميع الى بيته • حصل ذلك حين توقفت السيارة فى مدخل الطيبة ، وحين بدت جموع الناس وهى تنتظر ، وتحاول أن تعرف أى شيء حصل •

قال المختار ، فى الظلمة التى تخيم على كل شيء ، ولا يستطيع الانسان أن يميز الآخرين الا من أصواتهم :

ـ تعالوا الى بيتى •• هنالك سوف نلتقى •

وبطريقة خفية حافلة بالحنان والعذوبة والخوف والتقديس ، حملت جثة عساف الى الداخل • وضعت فى صدر المضافة ، ووضع الى جانب الرأس فانوس ، وقريبا من يده اليمنى وضعت البندقية ، وبحركات آلية ، كأنها رتبت منذ وقت طويل ، وبعد أن تم ذلك بهدوء واتقان ، طلب المختار من الجمع أن يجلسوا •

الصمت • الصمت ، ولا شيء غير الصمت ، وما عدا الحركة الثقيلة الحافلة بالحزن ، والمتمثلة بتلك الوجوه الملهوفة المتسائلة ، فان الطيبة من أعجب الاماكن وأكثرها غرابة ، لا تستطيع أن تفصح عواطفها بسهولة ، وحتى لو أرادت أن تقول شيئا فانها كثيرا ما تقول ذلك الشيء بطريقتها الخاصة ، والتى قد لا تبدو مألوفة أو مفهومة !

لم يتجرأ أحد أن يسأل المختار ، أما رجال البادية الذين ساعدوا فى حمل الجثة ، فقد قال العريف الذى يقودهم :

ـ سوف نذهب ونجهز التقرير لرفعه غدا صباحا •

ودون انتظار تحركت السيارة ، وغادرت المكان !

والمختار الذى كان بادى العصبية ، ومحمر العينين ، والذى كان يتحرك بعض الاحيان حركات طائشة لا تعنى شيئا ، فقد كان يقاوم فى نفسه ذلك الكابوس الذى لا يطيق أن يحتفظ به ولا يقوى أن يعبر عنه • وهو اذ كان قد برع فى كل الاوقات على أن يدير الحديث ، وأن يتكلم بطريقة لا يحسنها غيره فى الطيبة ، والذى كان يوصف بأنه قادر على أن يرش على الموت سكرا ، ويقدم أصعب الامور وأكثرها مشقة ، بأيسر الوسائل وأكثرها قبولا ، بدا تائها ضائعا خائفا ، وبدا شديد العصبية بحركات يديه ووجهه • أما حين انتظم مجلس الطيبة ، كما لم يحصل ذلك من قبل ، ووسط الصمت القاسي الذى خيم على كل شيء ، انفجر صوت المختار ، دون أن يطلب اليه أحد ، ودون مقدمات من أى نوع :

ـ هذا عساف •• انه أمامكم ، انظروا اليه •

وهز رأسه بلوعة ، دون أن يلتفت ، ثم تابع بلهجة يخنقها البكاء :

ـ عساف الحصان ، عساف الغيمة ، أبو الفقراء ، الذى لا ينام ساعة فى الليل من أجل أن تعيش الطيبة وتبقى •• عساف الذى يحب الجميع ، ويقتل نفسه حتى يستمر الناس •• عساف زينة الرجال ، ترككم الآن ، تركم وحيدين تحاربون الحكومة والعسكر والجراد ، ولا أحد يعرف أية قوى أخرى •• وماذا سيحصل !

كاد أن يواصل ، خاصة وان كلماته نزلت الى قلوب الرجال كأنها السكاكين الملتهبة ، فحركت الرءوس ودفعت حبات من الدموع لكى تتساقط بصمت ، لكن فجأة تغيرت أفكاره واضطربت :

ـ ما فائدة الكلمات الآن ؟ يمكن أن نكرز من هذه الساعة وحتى يوم القيامة ، لكن كل يوم يسقط منا الرجال ، وتسقط البيوت فوق رءوسنا وتتقطع الاشجار بأيدينا •• ولا يتغير شيء !

قال رجل مسن يريد أن يغير الموضوع :

ـ حتى هذه الساعة لا أصدق أن الرجل مات •

قال المختار :

ـ انتظر • وسوف ترانا ، واحدا بعد آخر ، نهوى على وجوهنا • وتطمرنا الرمال ، وقد لا نجد من ينقط فى حلوقنا قطرة ما •

وقهقه المختار بطريقة تختلط فيها السخرية بالنشيج ، بالحزن الكاوى ، ثم أضاف :

ـ تماما كما حصل مع هذا الحصان !

قال رجل وهو يصوب عينيه الى عساف ولا يرفعهما :

ـ لكن كيف مات ؟ كيف حصل ما حصل ؟

قال المختار وهو يغير جلسته ، لان الموضوع يحتـــاج الى بعض الحركات والاشارات ، ولكي يخلق في نفوس الناس التأثير المناسب :

ـ اسمعوا .. كدنا نعود . يئسنا من البحث . درنا في كل مكان ، بحثنا في كل الامكنة التي تصورنا أن عساف يذهب اليها ، خاصة وان السيارات لم تذهب بعيدا . ومقبل ، الذي يعرف الصـــحراء شبرا شبرا ، قال أن هذه هي أماكن الصيد ، وعساف باعتبـــاره صـــيادا يعرف أين يذهب ، ولا يمكن أن يذهب أبعد من ذلك . بحثنـــا .. بحثنا ، وقائد البادية ، وقف أكثر من مرة على ظهر قمرة الســـيارة وتطلع في كل الاتجاهات مستعملا ذلك المنظـــار الذي يرى الابرة من مسافة طويلة ، لكن لا شيء . ومقبل ، الذي يملك عيون صقر ، تطلع في كل الاتجاهات ، ولكن لا شيء . كدنا نعـــود ، كنا متأكدين أن عساف دفن تحت الرمال ولا يمكن لاحد أن يراه ، لكن فجأة بدأ مقبل يخبط قمرة السيارة بقوة .

توقفت السيارة . نزل القائد ، ونزل السائق ، ومقبل ظل ينظـــر باتجاه معين . بدا مترددا أول الامر ، لكن فجأة صرخ :

ـ يجب أن نتجه الى الناحيـــة اليسرى ، لانني أرى نسرا . لســـت متأكدا تماما . لكنني رأيت نسرا يحوم ، وما دام هذا الطير يعلو وينقض بهذه الطريقة فلابد ان هناك شيئا !

وقبل أن يكمل مقبل كلامه وضع القائد المنظار المقرب على عينيه ، حيث أشار مقبل ، وهز رأسه دلالة الشك أول الامر ، ثم بدا متأكدا ، وبسرعة طلب من السائق أن يتوجه ناحية اليسار .

لمسافة كبيرة بدت الارض مثل راحة الكف ، لا شيء أبدا ، والنسر الذي لم يكن يرى أول الامر . بدا مثل نقطة سوداء في الفضاء البعيد ، كان يصعد ويهبط ، وحين رأيناه أول مرة ، غاب ثانية . تصـــورنا الامر كله وهما ، وان مقبل لم ير شيئا ، لكن والســـيارة تتجه حيث يريد ، والسكون يخيم على كل شيء ، والارض خاوية لا تظهر شـــيئا أبدا ، بدا على مسافة بعيدة زوال . قال مقبل بتأكد جازم :

ـ « هذا النسر حط على شيء . ويجب أن نصله لنتأكد ! »

وأسرعت السيارة . وتعلقت عيوننا حيث يشير مقبـــل ، وفي كل دقيقة نقترب أكثر فأكثر حتى تأكدنا من وجود النسر . كان من مسافة بعيدة يبدو جالسا مثل رجل . كان بسواده القاتم شديد الوضوح ، وترتفع قامته شيئا فشيئا ما دمنا نقترب . وحين أصبحت المســـافة

بيننا لا تزيد على مئات الامتار طار • بدا ضخما مهولا ، وبان البياض فى لونه الى جانب السواد •

ومع كل خطوة تقتربها السيارة ، حيث كان يربض النسر ، بدت لنا الصورة أكثر وضوحا وقسوة مما كنا نتصور •

كان عساف مدفونا بالرمل • لم يكن يظهر الا رأسه ، وفوق الرأس تماما كان الكلب رابضا ، وكان الجزء الاكبر من جسد الكلب مدفونا بالرمل أيضا ، ولكن بطريقة غريبة للغاية ، كان يشكل سياجا حول جسد عساف ، خاصة رأسه •• كان يحتضنه •

ولما وصلنا رأينا كل شيء واضحا !

قال مقبل بثقة : ـ عساف مات قبل الكلب ، ولابد أن بعض الطيور •• ربما هذا النسر أو غيره ، أحست وعرفت بذلك ، وجاءت لتأخذ نصيبها منه ، لكن الكلب ، وفى محاولة لحماية عساف صارعها حتى صرعته • انظروا الى الدماء المتجمدة فوق رأس الكلب ، لقد مزقته بمناقيرها لتصل الى عساف ، وفيما هو يدافع عن نفسه ، وعن عساف تهشم ، ولابد أن يكون قد مات من العطش أو من النهش •• »

قال مقبل ذلك وامتدت يده الى الرمال تزيحها وتسحب جثة عساف الجثة مدفونة بالرمل تماما • المطرة فارغة ، وعساف يقبض على البندقية بقوة ، ولابد أن يكون قد قام وسقط عدة مرات ، لان يده اليسرى ملتوية ومزرقة ، ومن حسن حظه انه سقط على وجهه ، لو كان فى وضع آخر لاكل النسر عينيه وهشم وجهه ، والكلب حين رأى عساف يسقط قام فوقه • لابد انه حاول انقاذه بشكل أو آخر •• لكن العاصفة كانت أقوى من الاثنين !

بهذه الطريقة انتهى عساف ·

سكت المختار ، وضع يديه تحت صدغيه ، كأنه يحـاول ان يمنع رأسه من السقوط أو كأنه يتذكر ، وخيم صمت ثقيل ، وبصـوت مختلف تماما ، صوت يأتي من عالم آخر ، أضاف :

ـ كان بودي لو حملنا الكلب معنا ، كان يستحق ذلك ، لكن لم أجرؤ على طرح الفكرة ، بدت لى لا تناسب الموقف ولا يمكن أن يفهمها أحد · أما حين حملنا الجثة ووضعناها فى البيك آب ، فقد ظللت على الارض لبعض الوقت ، وكنت أنظر الى الكلب · لم أسـتطع أن ارفع نظرى عنه ، لكن قائد السيارة العسكرية ، قال بصوت عصبى ، وان كان فيه بعض القسوة : « لم تنته مهمتنا بعد ، علينا أن نصـل الى الجماعة » · ولما صعدت الى السيارة ومررت الى جانب الجثة ، نظرت اليها بامعان ، بدا لى وجهه شديد الحزن ، ولا أعرف كيف سـمعت صوت عساف · سمعته يقول : « والكلب ·· هل تتركون الكلب ؟ » وبسرعة · وبخوف اقتربت من الجنديين اللذين كانا فى مقدمة السيارة ولم أستطع أن أنظر بعد ذلك الى الخلف · كنت خائفا ، كنت خائفا تماما من أن أرى عساف ، أو أن أسمع كلماته ، وسيطر على الخوف أكثر عندما مالت الشمس الى المغيب وتصـورت الذين ينتظـرون ، وتصورت الطيبة والبشر ولا أعرف أية أحزان أخرى » ·

قال أحد المسنين ، وقد بدت فى لهجته رنة حـزن لم يتصـورها الكثيرون :

ـ كان من الواجب أن تهيلوا عليه التراب لكى لا تأكله الطيور !

رد المختار بعصبية :

·· كان الواجب أن نأتى به ·

قال الرجل المسن :

ـ لا يمكن أن تحمل الحيوانات حين تموت ، لكن الاكرم لهـا أن يهال عليها التراب ·

هز المختار رأسه وقد بدت عليه علائم الحزن الشديد والندم ، ولم يتكلم ·

قال صاحب الفرن :
ـ أعجب شيء في هذه الدنيا العلاقة بين الانســـان وما حوله من أشياء ، من حيوانات وأشجار وبيوت وانهار ، حتى الصـــحراء التى لا تبعد كثيرا عن الطيبة يتعلق بها الانسان في حالات كثيرة ، لان فيها نجاته ، ولولا ذلك لما ذهب عساف الى هنـــاك • كان يريد أن يخلص الطيبة ، ويخلصنى أنا بالذات ، لان الارغفة القليلة التى أصـــبحت تخرج من الفرن لم تعد تكفى أحدا •
قال رجل ظل صامتا ، لكن دمعة سقطت حين بدأ يتكلم :
ـ فى الطيبة ، كما فى أى مكان آخر من هذا العالم ، ما يحتاج الى تغيير هو الانسان •
وصمت لحظة ، جفف دموعه التي كانت تتســـاقط دون ارادة على خديه وأضاف :
ـ لو اننا فهمنا ما كان عساف يقوله ، لكانت حالنا الآن أفضل •
قال أحد المسنين :
ـ لقد رحل عساف • ذهب ولن يعود •
توقف قليلا ، ابتسم بحزن وكاد أن يتابع ، لكن واحـــدا آخر قال بعصبية :
ـ أغلب الاحيان تأتى الاشياء متأخرة !
قال شاب صغير لم يفطن أحد لوجوده طيلة الوقت :
ـ اذا ظلت الطيبة تنتظر المطر • ولا تفعل شيئا سوى انتظار المطر ، فسوف يموت الجميع كما مات عساف •• وربما أسوأ !
قال المختار :
ـ أكبر ظلم لعساف أننا تركنـــاه يحارب وحده • حتى الكلب كان أحسن منا ، لقد حاول انقاذه • ونحن لم نفعل •
قال أحد الرجال :
ـ والله •• الاكثر ظلما أن نترك البشر ، أما الكلب • فانظـــروا ، هذه هى الدنيا !
وتنهد بحزن ثم أضاف :
ـ كنت أعرف أن عساف يريد أن يموت • وانه ســـيقتل نفســـه بشكل ما ، اذا لم يكن فى هذه الرحلة ففى رحلة غيرها ، واذا لم يكن فى الصحراء فتحت أكوام الثلج • وأنتم تتذكرون حياته كلها ، تذكرون كم مرة ضاع • وكم مرة بحثنا عنه ••
كان يريد أن يواصل الحديث ، لكن أحد المسنين قال نجأة :

ـ يستغرب الانســـان انه فى حالات كثيرة لا يمكن التفـريق بين الحيوانات والبشر ، وربما كانت الحيوانات أفضل من بشر كثيرين ، لكنني منذ جاء هذا الكلب الى الطيبة تشاءمت وقلت لابد أن يقتل هذا الكلب عساف ٠

قال المختار بحدة :

ـ الكلب لم يقتل عساف ، نحن الذين قتلناه ٠

ـ لا يهم من قتل الآخر ، المهم الآن ان عساف ٠ الذى يرقد هنا ، لا يسمع ولا يحس بوجودنا ٠

قال المختار بحدة :

ـ لا ٠٠ انه يسمع ، نعم انه يسمع كل شيء ٠٠ ويفهم كل مايقال !

قال أحد المسنين :

ـ يا أبناء الطيبة ٠٠ لا تكونوا حمقى أكثر مما يجب ، الرجل انتهى الآن ، ولا يمكن لاية قوة على الارض أن تعيده ، وليس غير الله قادرا على ذلك ٠ واذا أردتم أن تكرموا عساف فدعوه نائما بسلام ، واسهروا حتى الصباح ، ومع أول أضواء الفجر نحمله الى الارض لنعيده اليها ٠

وبطريقة أقرب الى الغموض والتحدى بدأت السهرة . بدأت بنوع من التكريم الذى لم تتعوده الطيبة من قبل ، ربما نتيجة للخوف أو لبقايا قناعات ومواقف تجاه الموت . ورغم ان شعورا بالرهبة خيم على الجميع ، وان عددا من الناس ، بمن فيهم الضيوف ، كان يتمنى لو أن الامر لم يأخذ هذا الشكل ، لكن ازاء اصرار مبهـم ، وبلحظـــة من لحظات الانفعال الشديد ، قال المختار بعصبية :

ـ يجب أن تبقى معنا يا عساف لتشهد كل شيء .

ـ وأدار رأسه ، وعيناه مغمضتان ، ويداه ترتفعان بطريقة تحمـل معانى لا حصر لها ، وتابع كأنه يخاطب نفسه :

ـ أنت لم تمت . يا عساف .. وستبقى معنا .

قال رجل من مكان بعيد :

ـ الحياة والموت بمشيئة الله يا جماعة .. والآن انتهى كل شيء !

قال شاب بعصبية :

ـ عساف لن يموت . وهو الآن أكثر حياة منا جميعا !

قال رجل مسن :

ـ لا تكفر يا ولدى .. ان الملائكة ترفرف فوقنا الآن .

قال أبو زكو ، الذى يبنى كل شيء فى الطيبة ، حتى القبور ، وبدا كلامه مليئا بالذكاء ، والمكر ، لكى يخرج الخوف من القلوب :

ـ يا جماعة .. الصباح لا يزال بعيدا ، وعلينا واجب ثقيل غدا ، فاما أن تقرأوا القرآن وتتحدثوا . أو ليذهب كل واحد الى بيته ونعود فى الصباح .

قال المختار بعصبية :

ـ من يريد الذهاب ، فالباب مفتوح .

ونظر فى وجوه الناس ليرى وقع كلماته .. وتابع :

ـ أما أنا فلن أنام لحظة واحدة ، وسوف أسهر فى هذه الغـرفة ، الى جانب الرجل ، حتى يطلع النور ونحمله الى قبره !

وبهذه الطريقة العجيبة بدأت سهرة من نوع لم تألفه الطيبة قط . تحدث أكثر الموجودين ، تحدثوا عن أشياء كثيرة ، حتى الضيوف رووا

قصصا لم يفهمها أهل الطيبة جيدا ..

في تلك السهرة قيلت أشياء وأشياء ، وعساف مسـجى ووجهه مكشوف ، والضوء يتراقص على وجهه وعلى وجوه الآخرين فيخلق جوا من الغرابة والخوف .. والجنون أيضا ، والناس لا يريدون أن يتوقفوا لحظة واحدة .

واذا كانت هذه الاحاديث قد توالت دون منطق ، وربما دون ضرورة واضحة ودون مغزى أيضا ، فقد كانت الرغبة تسيطر على الجميع ، ان يقاوموا الصمت ، أن يقهروه .

تحدثوا عن الكلاب والغزلان والحمير ، تحدثوا عن فيضان الوادى ، وعن جفاف النبع ، وتحدثوا عن عساف وعن البشر ، وتجرأ واحد وقال أبياتا من الشعر ، وكاد أحد الرعيان أن يستعمل نايه ، لولا ان رجلا مسنا انتزعه منه بقوة ونظر اليه نظرة تختلط فيها القسوة بالعتاب !

لا أحد يتذكر بدقة الاشياء التى قيلت أو من قالها ،لكن حين تذكر الطيبة ، وحين تهجم الاحزان .. واذا جرى الحـديث فى وقت من الاوقات عن نهايات البشر والحيوانات .. وحتى الاشجار ، فلابد أن ترتد صورة تلك الليلة العجيبة لتذكر بشىء واحد : بالنهاية !

حتى الضيوف الذين تخشبوا فى بداية السهرة ، وتقيأ واحد منهم بعد أن نظر الى الجثة الممددة أكثر من مرة ،فانهم بطـريقة غريزية أقرب ما تكون الى حالة من حالات التطهر التى يلجأ اليها الانسان فى أوقات معينة ، نسوا كل شىء ، أو هكذا أوحوا لانفسهم ، وانساقوا فى الدهاليز المظلمة التى قادهم اليها أهل الطيبة ، وظلـوا يسـمعون ويتحدثون ، لكن الخـوف كان يربض فى كل حـركة ، حتى حركة الاجسام وهى تستدير لتقاوم التعب والخدر ، وحتى السـعال الذى يأتى فجأة ، ثم قطرات الدموع التى تتساقط دون ارادة ، كانت تخلق الخوف والجفلة ثم جاءت ولتحفر فى القلوب مجرى عميقا لا يتوقف عن النزف كلما ذكرت الطيبة ، وكلما جرى الحديث عن الحيوانات ، وحتى عن البيوت حين تنهدم ، وحتى عن الغبار المتخلف من كل شىء كانت له رائحة خاصة تذكر بأحزان لا حدود لها .

- ١ -

بعض حكايات الليلة العجيبة

جاءت سنوات القحط ، وجاء الجراد ، وجاء بعدهما الغرباء ، وهذه كلها غيرت طبيعة الناس والحياة ، فهجم الحزن واستقر في قلوب المسنين ، حتى أن الكثيرين قالوا بصوت عال : الموت أكرم من هذه الحياة الملعونة التي نعيشها هذه الايام • وقال آخرون : لم يعد بيننا وبين القيامة الا وقت قصير وتنتهي الحياة •

مع هذه الموجة الملعونة من التغير ، جاءت تلك السيارات التي تشبه الخيم ، سيارات قاسية الملامح ، قاسية الصوت ، لا تتوقف ولا تعبأ بأية صعوبة كانت ، تجتاز المسافات بسرعة ، وتخوض في الرمال كما تخوض في المياه • أما الاحجار التي تعترض طريقها فكانت ترفسها مثلما تفعل البغال ، وكثيرا ما قال المسنون انها عربات تحمل في أعماقها العفاريت ، لان ما تفعله لا تفعله الا العفاريت ذاتها •

وحيوانات الصحراء التي أحست بغريزتها بتلك التغييرات وأصابها الخوف ، ابتعدت عن الاماكن التي تمر بها السيارات ، وتجنبت ورود المياه التي كانت على الطريق ، واكتفت بأقل الطعام لكي تبقى بعيدة عن الحركة وعن تلك اللحظات المجنونة التي تخترق الانسان وتحوله الى كائن أشبه ما يكون بالرياح السوداء •

هكذا كانت الحياة حتى وقت ما ، لكن الاغنياء والغرباء تصيبهم لحظات الجنون أكثر من غيرهم ، وتخترقهم أرواح ملعونة تجعلهم أقرب الى العفاريت • وهم الذين رفضوا استعمال خيام الحديد أول الامر ما لبثوا أن اقبلوا عليها برعونة • وفي ذلك الوقت بالذات قال المسنون بصوت عال تماما : الآن لا ننتظر القيامة وانما نراها •

ومثلما تنبىء الرياح عن الامطار ، فقد بدأت الاشياء تتغير بسرعة • تغيرت الصحراء كثيرا : شقتها الطرق ، وملأ صمتها دوي الآلات ، واخترقت ظلمتها المديدة أضواء تشبه النيازك ، وحتى الاماكن التي لم يألفها الضب والعفاريت ما لبثت أن أصبحت مسكونة بهؤلاء الذين جاءوا من حيث لا يعرف أحد ، وفي تلك الاماكن فتحوا مطاعم من نوع لم يألفه أحد من قبل • وتقاضوا ثمنا كبيرا لما يقدمونه ، من ماء أو شاي محروق • اما اذا توقف الرعاة هناك طلبا للراحة فكانوا يتابعون

بنظرات الازدراء والقسوة ، وحتى الجمال التي تعرف كيف تحتمل أقسى أنواع الحياة ما لبثت أن تحولت الى مخلوقات عجيبة مستفزة بصورة دائمة ، فاذا لم تكف نظرات الغرباء لتجبر الرعاة على الرحيل فقد كانت الجمال تفعل بهياجها ورغائها ۰

حديث الصحراء اذن ليس له نهاية ، انه مثل امتدادها واتساعها وقسوتها ولانهايتها ، انه حديث الحياة بكل ما فيها من امداد واتساع وقسوة ولا نهاية ، لكن حدث شيء ما جعل لذلك اليوم ، بعد العصر وقبل الغروب بقليل ، دويا يمتد الى أماكن بعيدة ، ويحدث أثرا قلما يحدث ، فالعنزى مجنون قرية الجوف ، والذى لا يعرف حرفة غير الصيد ، والذى تحول عشقه من القوس الى البندقية : بعد أن سخر جميع الصيادين من طريقته البائسة فى استعمال هذه الادوات القديمة، أثبت انه خلق للصيد ، وانه لا يقل مهارة فى استعمال البندقية عن القوس مثلما كان من قبل ، وشعر بنوع من اللذة والتفوق حين كان يرجع بطريدته التي يريدها ويرميها بالمكان الذى يريد ۰

سوف يكتب الكثيرون ، ذات يوم ، عن مهارته ومعرفته ، وسوف تحكي قصص كثيرة عن جنون العبقرى ، أما الجنون الحقيقي ، فقد حصل ذلك اليوم بعد العصر وقبل الغروب ۰

لا يعرف كيف وافق على تلك اللعبة الملفقة ، حصل ذلك فجأة ، بعد تحد من تلك التحديات التي تأتي وكأنها انبثاق لظلمة قاتلة ، قالوا : « العنزى يرمى بالسهم أحسن من البندقية » ۰ سمع ذلك ونظر اليهم ليمتحن ان كانوا يعنون ما يقولون ، أم انها مجرد كلمات يخلقها الليل والسمر ۰ وحين ضحك ضحكته الصغيرة ولم يجب كانوا يعرفون أن كلماتهم لا تعنى شيئا بالنسبة له ، وانه أكثر ثقة من أى وقت ۰ أما حين قال ذلك الماكر ، أبو غريفة « ان العنزى هداف لا يخطىء ..» وتوقف قليلا ثم ابتسم، فقداحس العنزى انشيئا ما سوف يحصل ۰

واذا كانت المفاجأة عدو الانسان ، فقد كانت عدو العنزى اكثر من أى انسان آخر ۰

فى ذلك الوقت ، وبعد كلمات أبو غريفة ، خيم صمت طويل قاس ، وانتظر الجميع أن يقول شيئا ، وهذا ما حصل بعد ذلك ۰

قال أبو غريفة :

ــ العنزى هداف لا يخطىء ، اذا كان راجلا ، اما والسيارة مثل البرق ۰۰

وابتسم دون أن يضيف كلمة واحدة !

في ذلك المساء وافقوا أن يكون الرهان كبيرا ، والعنزى الذى وافق، قال بتحد :

ـ سوف آخذ طلقة واحدة ٠٠ وسوف ترون ٠

انها المرة الاولى التى يشعر العنزى فيها بالتوتر ، بالتعب ، وبنوع من الحزن ٠ وسأل نفسه ٠ « هل أظفر فى هذه التجربة الملعونة ؟ هل انجو من النظرات وكلمات السخرية ؟ وهل أصبح بعد فترة مثل أولئك الاغنياء الذين يملكون خيام الحديد ويتحركون بتلك الطريقة كأنهم أفواج الجراد بحثا عن الغزال ؟ »

مرت هذه الأفكار وأخرى غيرها فى رأسه ٠ طردها بقسوة ٠ كان واثقا أن طلقته لن تخيب ٠ وكان واثقا أكثر من ذلك ان هذا الرهان مثل غيره سيتحول الى قصة جديدة تضاف الى عشرات القصص التى يرويها عنه الناس ، ويرفض أن يؤكدها أو ينفيها ، لكنه مع ذلك يشعر بنوع من الحزن الغامض ٠

خيمة الحديدية تتحرك ، الخيام الاخرى تحرك بعضها وبعضها ينتظر شيئا ما ليتحرك ، وموعد اللقاء بعد الغروب ، عند الكيلو المائة والستين ٠ ان كل شىء تغير بنظر العنزى ٠ كيف كان يحمل قوسه وسهامه ويتحرك ٠٠ ؟ متى كان يعود ٠٠ والى أى مكان ؟ كانت هذه رهانات بينه وبين نفسه ، أما عندما تحول الى البندقية فكان ذلك تحديا أكثر مما كان رغبة ، لكنه شعر أن المهارة فى الحالتين سلاحه ، وان السلاح الذى يستعمله الصياد لا يشكل بالنسبة له أكثر من الفرق بين صيد وآخر ٠

فى لحظات كثيرة وسائق سيارة الجيب يحدو كما لو أنه على ظهر بعير ، شعر العنزى ان ما يحصل أمامه أكثر مما يطيق ، فأحس بالندم وسيطر عليه صمت حزين ٠ لم يتعرض فى حياته الى تجربة من هذا النوع ، أما حين قدم له الرجل الذى كان يجلس فى المقعد الخلفى المنظار المقرب ليستعين به ، نحاه بيده دون أية كلمة ٠ كانت عيناه تغزلان الافق ، تدوران مثلما تدور عينا صقر ، لكن والسيارة تقفز مثل الجرادة ، وتغير سرعتها مثلما تفعل الرياح أيام السموم ، فقد أصابه الدوار ، وتأكد انه غير قادر على أن يفعل أى شىء مثلما تعود ٠ ان حبة البندقية أصغر من القمحة الحقيقية ، وأى اهتزاز مهما بدا صغيرا يغير كل شىء ٠ تذكر حين كان يرفع الرصاصة الفارغة من قاعدتها المعدنية من تلك المسافة الكبيرة ، تذكر حين كانت تعلق الرصاصات

الفارغة بخيط وكيف يتناولها الواحدة بعد الاخرى بترتيب مذهل . أما حين وضع الابرة على مسافة عشرة أمتار فلم يرها أحد غيره ، ولما ذهبوا ليروا ان كان أصابها أم لا ، قال بعض الماكرين ان الريح التي مرت الى جانبها انتزعتها من حبة التمر التي علقت بها . تذكر العنزى هذه الذكريات والسيارة تقفز بتلك الطريقة العجيبة . كان يريد أن يتأكد من شيء واحد ، أن يثبت البندقية على كتفه دون أن تحركها أية قوة . لكن والسيارة توالي هذا الركض بجنون فكأن يمتلىء شكا لحظة بعد أخرى ، ولولا بقية من خوف أو حيلة ، ولولا الكلمات الكبيرة التي سمعها في الليلة الفائتة ، والتي قالها هو نفسه . لتراجع . لا أحد يستطيع أن يجبره . لا أحد يستطيع أن يقنعه ان هذه طريقة الصيد . لكن حصل كل شيء فجأة ودون تفكير أو ارادة . والآن تفترسه الشكوك ، يتشبث به الحزن ، يحس الغبار يدخل عينيه ويحجب عنه الرؤية ، أما كلمات الذي يجلس وراءه ، فقد كانت أشبه بالاصوات المشينة ، كان يسمعها ولا يفهمها . كانت فجأة تموت . أما عيناه اللتان تغزلان الفضاء بحثا عن الطريدة فكانتا تلمعان بشيء أقرب الى الظلمة .

انه يعرف أماكن تلك الوعول القوية . وحين كان يركض بين الصخور . قريبا من الخبرة ، كان لا يترك طلقة تغادر البندقية قبل أن تشرب تلك الوعول ، ثم ترفع رءوسها وتتشمم الهواء . كان يتخير أكبرها وأقواها ، حتى اذا تملى من المنظر تماما خرجت الطلقة بتلك الطريقة العجيبة لتقتل . لتقتل على الفور .

الآن ، في هذه اللحظة تغير كل شيء بالنسبة له . لا يعرف متى يضرب ، وهل ستتاح له لحظات التجلي السمحة المليئة باللذة والخطر .. ؟ انه يخاطر ولا يعرف ماذا سيحصل .

قال لنفسه : العنزى هذه المرة لا يصيد ، وانما البدوي الذي أفسده الاجانب يفعل ذلك ، انه يقود خيمة الحديد بطريقة رعنة ،مرة يتركها تطير ، مرة يتركها تدرج ، مرة يتركها تجن ، ومرة يتركها تموت حين يطفىء محركها لكي يخلق سكينة للحظات لعل وعلا ينفجر في هذه السكينة .

انقضى العصر كله ، مالت الشمس نحو الغروب ، هبت نسمات فيها رطوبة ، تنفس العنزى ملء رئتيه ، لكنه شعر أن الحزن يلفه تماما ، قال لنفسه : « مثل كل مرة ، العنزى لا يخيب » . قال هذا ليخلق ثقة أخيرة في نفسه ، وليقاوم الشك والعذاب اللذين يتفتتان في دمه ذات لحظة ، قبل الغروب بقليل ، في لحظة اتحاد كل الاشياء :

الغبار والامتداد والشمس المتوهجة قبل سقوطها مع الرياح الطرية التي انسفحت فجأة لتخلق رائحة خاصة تملأ الافق ، في تلك اللحظة رأى العنزي الوعل • صرخ بعذاب :

ـ هذا هو !

التفت السائق برعونة في كلّ الاتجاهات ليرى ذلك الوعل الخرافة الذي تحدث عنه العنزي • لم ير شيئا • انعطف نحو اليمين بخيمة الحديد انعطافة حادة لعله يرى ، لكنه لم ير شيئا • الذي كان يجلس في الخلف مد اليه المنظار كمساعدة أخيرة ، لكن العنزي أبعده بنوع من القسوة والاحتقار • قال السائق :

ـ لا أرى شيئا !

ـ الى اليسار قرب التل !

استدار بسرعة ، أقرب الى الحماقة ، نحو المكان الذي أشار اليه العنزي • لم ير شيئا • أوقف السيارة ومسح جنبه ونفض الغبار عن عينيه ، نظر بامعان ، ولما لم ير شيئا قال للصياد المرافق : « أعطني المنظار • »

حين وضعه على عينيه وأدار رأسه نصف دورة كبيرة رآه على البعد •

وبسرعة شغل السيارة مرة أخرى وانطلق مثل الريح • في تلك اللحظة كان العنزي متأكدا انه خسر كل شيء •

كانت السيارة بانطلاقها المرعوب مثل ذئب جريح • كانت تتلوى وتقفز كأنها الكرة • والعنزي الذي أمسك بندقيته بقسوة ، شعر أن كل شيء يهتز ويمكن أن يتمزق • كان يريد هدوءا من ذلك النوع الذي اختبره وعاشه طويلا • كان يريد أن يشعر بلذة الاختيار ولحظة التصويب • وهو الآن يفقد كل شيء : الاستقرار ، اللذة ، الاختيار •

لا شيء سوى هدير السيارة والغبار ، وذلك الدوران الاهوج ،والوعل يغيب ويظهر كأنه السراب ، والسائق البدوي الذي ظل يحدو طوال الفترة السابقة أصابه نوع من الجنون • كانت تخرج من فمه أصوات عمياء ، وكان يصرخ بشتائم نابية ، وكان يعاكر الريح •

الغثيان يملأ حلق العنزي ، عيناه تغيمان ، صمته يقسو ويشتد حتى يصبح مثل حجر فوق صدره ، اما محاولاته في أن يسيطر على نفسه أو على الآخرين فقد انتهت الى الفشل • انه عاجز تماما •

مطاردة عجيبة لا تحصل في الحياة الا مرة واحدة • وتلك الخيمة الحديدية التي سمع الكثير عن قوتها في اجتياز كل الصعوبات وجدها أقرب ما تكون الى صخرة تتدحرج بطريقة عمياء ، دارت حول التل

مرة. دارت مرة اخرى ، والوعل الذى يبدو ويختفى لا يعرف الى أين يذهب أو كيف يستطيع التخلص من هذه النار التى تحيط به من كل جانب •

يقترب ، يبتعد ، يظهر ، يتلاشى • لكنه دائما يركض فى محاولة لان يهرب من النار التى تحاصره • والعنزى ، الذى كان يتحدث عن الغزلان مثلما يتحدث عن النساء ، وجد نفسه عاجزا ومسلوبا ، اما البندقية بين يديه فقد أصبحت مثل جثة ثقيلة لا يعرف كيف يحركها أو يتخلص منها •

قال لنفسه : آخر يوم من أيام العمر !

اما حين سمع الصياد وراءه وهو يصرخ :

ـ عنزى •• استعد •

فقد شعر أن مخرزا يدخل جنبه • شعر أن التحدى لا يزال قائما ، وان فرصته الاخيرة تقترب وتتلاشى فى كل لحظة • وذلك البدوى الذى يتحدث بصوت مجنون كان هو الذى يصيد • كان يسرع مثل الريح ، يصرخ ، يشتم ، وكانت هذه الاشياء تجعل العنزى يفقد ارادته وقوته وأخيرا قدرته على التصويب ، ارتطم رأسه بالزجاج الامامى وحز طرف المقعد جنبه ، والوعل يركض بسرعة ويتلفت بطريقة مذعورة لعله يجد طريقا تجنبه حصار النار المجنونة •

فى لحظة ما ، والاصوات تحاصر العنزى وتفتك به ، شعر أن يدا غير يده ترفع البندقية ، وشعر انها تستند على كتفه ، وفى لحظة الصراخ والتحدى والذهول كانت طلقته •

كانت الشمس على وشك المغيب ، وكان محرك السيارة قد انطفأ • وكانت العيون الست تتجه الى ذلك المكان الذى سقط فيه الوعل ، واذا كان البدوى والصياد المرافق ، الذى أريد منه أن يكون شاهدا ، قد نزلا بمرونة مذهلة ، فقد جمد الخوف العنزى فلم يتحرك ، لكن والصرخات والاشارات تستفزه وتطلب اليه أن يترجل لكى يرى الطريدة • تحرك ببطء ، نزل ، مشى بهدوء ، لكن بطريقة تختلف عن أية مرة سابقة كانت نفسه تمتلىء بالحزن ، أما حين اقترب كثيرا • ونظر تلك النظرة ، شعر ان الدنيا تضيق وان الظلمة تهبط فجأة • كانت رصاصة ثقيلة خانقة ، لان العنزى الذى قتل عددا كبيرا من الوعول ، لم ير فى حياته وعلا مثل هذا الذى يراه فى تلك اللحظة ، كانت عيناه تتركزان فى عينى العنزى تماما ، وكانت دموع بطيئة ، لكن كثيفة تتساقط • أما رجله اليمنى المكسورة فكانت مثل عصا

قديمة ، وكانت الطلقة قد فتحت نفقا أحمر مسودا فى الجانب الايسر وكانت قطرات الدم اللزجة الكثيفة تتساقط خيطا قاتما تعلن نهـاية كل شيء ٠

ولم يستطع العنزى أن ينظر اليه أكثر من تلك المرة ، ولم يستطع أن يركب خيمة الحديد فى طريق العودة ٠ أما البندقية فقد تركها فى السيارة ولم يسأل عنها مرة أخرى ٠ ولم يسمع أحد شيئا عن العنزى بعد ذلك اليوم ٠ ومن جديد كثرت الاحاديث عنه وتشعبت واختلط فيها الخيال بالواقع ، لكن أكثر الاحاديث انتشارا كان الحـــديث عن تلك الدموع التى غيرت وجه الصحراء وظلت تنهك قلوب الناس كلما جرى الحديث عن هذا النوع من الصيد الذى كان فى يوم من الايام !

- ٢ -

انتهى اليوم الاول بالخيبة ، فالرغبات الكبيرة التى عززتها القصص والخيال الجامح المفترس ، ثم الادعية الوثنية التى رددت بأصـــوات خفية لاهثة ومليئة بالابتهال جعلت ذلك اليوم بائسا • أما الطيـــور القليلة التى نامت بطريقة ما تحت الارجل أو علقت على أطراف السيارة فكانت اشارة أخيرة ان الحزن يتوغل فى القلب ويستقر هناك •

لا يمكن تذكر الاصوات التى انطلقت فى الليل ، اختلطت بالاكاذيب والخيال وعذاب القهر ، اختلطت بالخيبة حتى لم يكن هناك أحد يسمع أحدا • وعندما نام الرجال كان الغيظ ينتظر الفجر مع ثقة بايمان فى القلوب اكثر من الكلمات التى ترددها الافواه ان الطلقات لا يمكن أن تنغرز الا فى الرءوس أو فى الجنبات اليسرى ، لان حماقة اليوم الاول والسرعة وعشرات الاوهام الصغيرة الاخرى كانت تؤكد ان الخطأ أقرب الى الجريمة ، وان السرعة عدو الانسان الاول ، أما عدد الطرائد التى اصيبت فى أماكن غير قاتلة فكانت كثيرة الى درجة ان لا أحد يتذكرها!

كان أكثر الصيادين شعورا بالخيبة ، وكان أكثرهم حقدا وجنونا • لا يمكن أن يكون فاشلا بهذا المقدار ، وليس مبتـــدئا أو هاويا حتى يسمح لنفسه أن يكون هزأة أو ثانويا فى هذه الرحلة السنوية التى استعد لها فترة طويلة ، وانتظرها فترة أطول • كان يريد أن يثبت لنفسه ، قبل أن يثبت للاخرين ، تفوقه الساحق وامتلاكه النهائى لما يريد ، والآخرون الذين نظروا اليه بتقدير يمازجه الحســد اعتبروا هذه الرحلة مقياسا لتطور امكانياته فى الصيد خلال ســنة كاملة ، خاصة وان هذه السنة كانت حافلة بالرحــلات والاكاذيب والمهـــارات المتفجرة الغامضة التى يرددها كثير من الناس • وهذا الاختبار الجديد يكون حقيقيا ومؤذيا حين يأتى الغرباء خاصة من الهواة • ان نظـــرة هؤلاء فيها من التقدير والشك مقدار متســـاو ، ويتصرفون بكثير من الخوف والتحدى والسخرية بعض الاحيان ، حتى ان كلمة تصدر فى غير وقتها أو فى غير مكانها تقتل أكثر من الطلقة !

هل نام تلك الليلة ؟ هل حلم بالوعل الكبير الذى يسقط من الضربة الاولى ؟ هل يلتزم بتلك القاعدة البائسة التى وضعها شعارا للاخرين

قبل أن يضعها شعارا لنفسه : الوعل ٠٠ ما أريد ؟
شيء ما حصل في تلك الليلة ٠
واذا كان النوم ليس مجرد راحة أو حاجة ٠ بالنسبة للصياد ٠ فانه يجعل صيادا ظافرا وآخر فاشلا ، ويجعل يدا ترتج واخرى تصمد كالصخرة ٠ لقد رأى نفسه فوق تلال من الوعول ٠ كان يضع قدمه بعدم اهتمام على قرن الوعل الكبير الذى يقود القطيع ، ويتحدث بايجاز يصل حدود الازدراء مع ذلك الصياد المبتدىء الذى اختار أن يكون رفيقا ورقيبا له ، كان ينظر الى الآخرين بنوع من الزهو المتواضع!
شيء ما حصل في تلك الليلة ٠
كان ينتظر الفجر لينطلق ، لكن الفجر لا يأتي ، والرجال لا يزالون نائمين ٠ مر على السيارات الثلاث وتأكد من ذلك ، اما صمت الصحراء فكان عميقا مسيطرآ الى درجة انه ينزل الى قلب الانسان خوفا واتحادا مع شيء ما ٠ وحين ايقظ رفيقه في الرحلة ، وبعد أن انتظر طويلا ودخن عددا من السجائر ، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة ٠
اذا تحرك في هذه الساعة يمكن أن يدرك المكان الذى أخطأ فيه الوعل أمس مرتين ، كان مكانا وعرا ، حتى ان السيارة رفضت الاستجابة أما الوعل الذى وقف بعيدا ونظر بتحد ، فقد شكل نهاية لكبريائه ، انه الاحتقار الاسود ٠
غبش الفجر ، مكان الامس ٠ الوعورة ، الحقد ، التحدى ، النظرات المصقولة التي تروى كل شيء في لحظة ميلاده الاول ٠٠ والحقد مرة أخرى !
لحظة انهيار الظلمة ترافقها لحظة انهيار أضواء السيارة ، قبل أن تولد الشمس ، قبل أن تستيقظ ينبثق نور لامع من مكان ما يجعل الرؤية ناصعة واقرب ما تكون الى نور داخلي وهاج ٠
دار دورة كبيرة بمكر حاقد كان يريد أن يصل هذا المكان مع التماعة النور ، وقبل أن تشرق الشمس ، انه يعرف الاماكن كما يعرف باطن يده ، ويعرف كيف يسقط على الوعل اللئيم كما تسقط الظلمة أيام الشتاء ٠
اتسع النور ، واتسع المكان ، وفي هذه الالتماعة المضيئة الصاخبة رآه ، كان منظره يشبه النور ويشبه راحة اليد ، كان الوعل الذى تحداه في الامس ٠
الوعورة سد للاثنين ٠ انه بمقدار ما تعطيه حرية الحركة تعطى الطريدة حرية الهرب والتخفي ٠ وفي الغبشة الرمادية الباردة المنعشة

اللامعة ، وبين صخرتين رآه ، كان ينتظر هذه اللحظة ، كان ينتظرها بلهفة أقرب الى العشق ، نسى ضربات الراس والجنبات ، فقط يريد أن ينتقم ، وانها اللحظة الوحيدة التى لا تأتى الا نادرا • خفف سرعة السيارة •• أطفأ محركها • انزلق بهدوء • أصبحت المسافة قصيرة ، ترجل من السيارة •• ارتجف قلبه وهو يتقدم ، أصـــابه الشك ان الوعل مجرد صخرة أو انه يتخفى بطريقة شـــيطانية • تقدم أكثر أصبحت المسافة لا تتعدى الثلاثين مترا • انها المسافة التى يريدها ، يتمناها •

في لحظة ما ، لم يعد يطيق صبرا • ان تحدى الوعل اكثر مما يحتمل يجب أن يلقنه درسا لا ينساه ، ويجب أن يمتحن جدارته أمام نفسه قبل أن يمتحنها أمام الآخرين •

ليس مهما ان كان التماع النور هو الذى جعله يرى بهـذا المقدار الشاسع ، وليس مهما أن تكون الضربة فى الرأس أو فى الجـــانب الايسر ، لان المسافة حين تصبح بهذا المقدار تكون قد كثفت الحقد كله وجعلته يستقر فى القلب تماما •

في الغبش ، في التماعة الضوء ، في سواد الحقد ، كانت الطلقة •

كان دويها صاخبا فتاكا كاويا • سمع صرخة صـــغيرة ، ثم رأى الطريدة تلتوى قليلا • تأكد فى تلك اللحظة من الظفر • شعر بنشوة جامحة أقرب الى الالتهـــاب • كان يريد أن يكون الى جانبه عشرات الناس ليروا المهارة ، الدقة ، النفاذ • انهـا الطلقـة الاولى فى عتمـة الفجر • التماعه ، ولابد أن تســـتقر فى المكان الذى يريده • لو لم تستقر فى الرأس ، فى الجانب الايسر فلا يمكن أن تلتوى الطـريدة بهذا الشكل وبهذه السرعة •

مشى بهدوء زاخر ليصل ممتلئا باللذة والعنفوان • قال لنفسه ، النوم والاحلام وآلاف الاكاذيب الاخرى أوهام الخائفين والخائبين •

تقدم اكثر • تقدم اكثر •• والتمع الكون كله ، كان النور مليئـا بالبياض الناصع ، مليئا بالصفاء الذى يجعل الرؤية أقرب الى خشونة الملمس ••

في الخطوة الاخيرة ، قبل أن يلتقط بنظراته الملتهبة قرون الوعل ، كان الجدى الصغير قد تدلى رأســه وقسم صغير من جسده ، ورأى الام تميل ناحية اليمين قليلا ، لكن تحـاول بقوة أن تدفع المخلـــوق الجديد الى النور ، تحاول أن تخلصه منه قبل الموت • ونظرت اليه •• كانت عيناها مليئتين بالدموع !

- ٣ -

من الامور التي بدت عجيبة لسكان الحي ، قريبا من بستان الاغا ، والتي لم يألفوها ولم يروا مثلها من قبل : ان كلبة في البستان ، كانت تخوض صراعا من نوع غريب ، وكان هذا الصراع يقع مرتين في اليوم ، مرة في الصباح الباكر ومرة قبيل الغروب .. والذين لم يروا منظر الصراع وسمعوه من غيرهم ، لم يصدقوا أول الامر ، اذ تصوروه عارضا وشاذا ولا يمكن أن يتكرر . لكن حين أخذ يقع تحت أبصارهم ، وبدأوا يتابعونه باهتمام ، ثم لما بدأوا يعرفون متى يقع وكيف يبدأ وكيف ينتهي ، أصبح الامر مثيرا ومدعاة لتعليقات كثيرة ومتناقضة . فسر أغلب الناس ذلك العداء بين الكلاب والغربان بانه عداء غريزي قديم وراسخ ، وفسره آخرون انه مجرد دعابة يلجأ اليها هذان الغرابان ليكسرا رتابة الحياة ، ولكي يمارسا رياضة من نوع خاص .

أما كيف وقع الامر في البداية فاقرب ما يكون الى الخيال : فقد ذكر بعض الذين شهدوه ان الغرابين كانا ينتقلان ، كعادتهما ، بين شجرة وأخرى . كانا يطيران طيرانا ثقيلا أخرق ، وفجأة عوت عليهما الكلبة ، وخلال فترة قصيرة بدأت تلك المعركة العجيبة . كان أحد الطيرين يأتي من المقدمة وما يكاد يسف ويقترب وتحاول الكلبة القفز عليه ، حتى يأتي الآخر من الخلف وينقرها من ظهرها ، وحين تلتفت يأتيها الاول من المقدمة وينقرها في رأسها ، أو في مؤخرة الرقبة .

قال الذين رأوا ذلك ان الامر لن ينتهي الا بنزف الدماء وبقضاء أحد الخصمين على الآخر . وظن بعض الناس ان الامر لن يطول حتى تتلقف الكلبة رقبة أحد الغرابين وتمزقها ، لكن اللعبة امتدت وطالت وتخللتها براعة لم يتصورها أحد ، لان مسافة الامن التي حافظ عليها الغرابان كانت من الدقة الى درجة تضطر الكلبة في أحيان كثيرة الى العواء أو الى الدوران السريع لكي لا تقع فريسة لغدرهما . والغرابان اللذان كانا ينقضان بتلك الطريقة الذكية الماكرة لم يكونا في عجلة من الامر . كانا ينتظران وقتا كافيا ، وقد حطا على غصنين متقابلين ، حول الكلبة ، حتى اذا تعبت من الدوران المجنون أو النباح واستقرت على وضعية معينة بدأتا اللعبة من جديد .

هكذا بدأت اللعبة أول مرة ، ومثلما بدأت انتهت بشكل مفاجىء ، وقد كانت هذه النهاية مخيبة لكل أمل • أما حين أخذت تتكرر ، وبأوقات تكاد تكون ثابتة ، في الصباح الباكر وعند الغروب ، فقد أثارت الكثير من الدهشة والاستغراب ، وبدأت تجمع الناس بطريقة غامضة ، والناس الذين فتنتهم الغرابة في البداية لم يلبثوا أن انقسموا الى فريقين ، كل فريق يناصر أحد الخصمين ويريده أن يقضي على الآخر أو يوقع به خسارة حقيقية • ومن أجل ذلك أعطوا للكلبة اسما ، سموها مرجانة ، أما الغرابان فلم يكونوا قادرين على أن يسموا كل واحد منهما باسم مستقل للتشابه بينهما فاطلقوا عليهما الغارة •

واذا كانت طبيعة الحياة قريبا من بستان الاغا تتيح لعدد محدود أن يتابع هذه المعركة في الصباح الباكر ، فان عصاري أيام الربيع كانت حافلة : كان جميع سكان المحلة يحرصون على حضور هذه المعركة ويتوقعون نهاية ما لها • فكان الاطفال يرابطون منذ العصر ويراهنون ، وكانت النسوة يأتين حاملات معهن الاطفال الرضع وأباريق الشاي ، وكان الرجال آخر من يأتي • وفي كل يوم بعد العصر وقبل الغروب ، وبمكان لا يختلف الا قليلا ، تبدأ المعركة • مع المعركة ترتفع الاصوات وتتعالى الهمهمات • ويصرخ أحد الرجال ، غارة ، فيثير هذا الصراخ حماس الاطفال وصخبهم ، وما يكاد ينقض الغرابان حتى يدوي صوت : مرجانة ، لم تكون مرجانة بحاجة الى هذا التنبيه ، كانت تقف مترقبة حذرة ، وفي لحظات معينة تتظاهر انها لا تسمع ولا ترى • لكن ما تكاد تسمع أحد الغرابين يسف قريبا من الارض ، وبمكان قريب ، حتى تقفز تلك القفزة الشيطانية ، ورغم القوة والاندفاع القوي يكون الغراب قد ارتفع الى المسافة التي تحفظ له الامن ، وتبدأ بعد ذلك اللعبة بين صرخات الاطفال وترقب الرجال وخوف النساء • كان كل واحد ينتظر شيئا ما ! وكان كل غروب يضع نهاية لهذه اللعبة ، لكن بطريقة استعراضية ماكرة ، اذ يتظاهر أحد الخصمين انه هزم ، وان المعركة لابد أن تشتعل مرة أخرى في وقت لاحق •

على هذا النسق الممتع كانت تجري المعركة طوال أيام الربيع المبكر • واذا كانت حماسة الرجال قد فترت ومشاركتهم في متابعتها تباعدت بمرور الايام ، فان الاطفال لم يتوقفوا عن ذلك يوما واحدا •

ذات يوم ، وبشكل مفاجىء انتهى كل شيء ، غابت الكلبة ، ولم يعد أحد يشاهد الغرابين • قال بعض المسنين : « الغربان مع بداية

فصل الحر تذهب الى أماكن رطبة ، ولابد أن يكون هذان الغرابان قد رحلا الى تلك الاماكن » • ويضيفون بثقة : « الغربان تفعل ذلك دائما » •

وقال رجال آخرون •• « حيوانات لا يعرف الانسان متى تأتى ومتى تذهب ، متى تلعب ومتى تتوقف عن اللعب • » وقال غيرهم : « سئمت الكلبة هذه اللعبة ، لان نقر الغرابين ونعيقهما ولدا فيها جروحا وخوفا •• ولم تعد تطيق » وقال الاطفال « يجب أن نذهب الى البساتين المجاورة ، لان مثل هذه اللعبة لا يمكن أن تنتهى أبدا » •

هكذا قال الناس ، وبدأت صورة مرجانة تغيب • أما اذا رأى أحد غربانا فى مكان ما ، فقد كان على يقين أن هذه الغربان التي يراها الآن ليست تلك التى كانت فى بستان الاغا •

فى أول أيام الصيف رأى بعض الاطفال مرجانة • كانت فرحتهم حين رأوها لاتوصف • نقلوا الخبر الى المحلة بسرعة،وتصوروا أن أياما جميلة مثل تلك التى مرت لابد أن تتكرر • أما رءوسهم فقد بدأت ترتفع الى هامات الاشجار وسطوح الابنية تبحث عن الغربان • ولم ير أحد من الاطفال البطن المتهدل أو الاثداء الثقيلة لمرجانة ، وبعد يوم أو اثنين رأى الاطفال مشهدا عجيبا : رأوا مرجانة ووراءها خمسة جراء كانت أشكال الجراء المدببة المكتنزة تثير عواطف الحب والاعجاب والغموض • من أين أتت بهذه الجراء ؟ أين كانت ؟ أما حين نقلوا الخبر الى الكبار ، فقد هز هؤلاء رءوسهم دلالة المعرفة ، وبدواكانهم يعرفون كل شيء !

خلال فترة قصيرة بدأ الغرابان بالظهور مرة أخرى • واذا كان الاطفال قد عبروا عن فرحهم دون تحفظ وبهياج ، فان الكبار بدوا أكثر اتزانا ، ونظروا الى كل ما حولهم بتأمل ، وفكروا فى الحياة والموت ،وفكروا بالاشجار والطيور ، لكنهم كانوا يتوقعون أن يروا فى وقت قريب مرجانة وقد أصبحت أكثر ثقة وخوفا فى وقت واحد •

كانت حول الصغار تسير بأبهة وكبرياء ، وكانت تعوى عواء حارا اذا اقترب أحد منهم • أما رأسها فلم ترفعه لترقب الغرابين ولم تأبه لصرخاتهما وهما يتطايران من شجرة الى أخرى ، وظل الغرابان بعيدين يرقبان مرجانة وجراءها ، ويرقبان البشر ، ولا يفعلان أكثر من ذلك !

الانتظار يزداد حدة ، والذين لم يحرصوا على مراقبة المعارك التى كانت تجرى فى العصارى وجدوا أنفسهم دون وعى ، لكن بتصميم ، يستيقظون مبكرا ، يمرون ببستان الآغا ويتوقفون طويلا لعل شيئا ما

يقع • كانوا يتظاهرون انهم يرقبون مرجانة وجـــراءها ، وفي بعض الحالات تراهنوا على الجراء : أيها الذكور وأيها الاناث دون أن يقتربوا وتراهنوا أيضا : أيها سيكون قويا وأيها سيكون ضـــعيفا • وهـذه المراهنات كانت تخفي شيئا وراءها : متى تقع المعـــركة من جديد ، كيف يتصرف الغرابان ضمن هذا السرب من الكلاب ؟

ومثلما حصل في المرة الاولى ، بعد اختفاء مرجانة والغرابين ، ولنتيجة للسلام الذى بدأ يغطى بستان الآغا ، دون مفاجآت من أى نوع ، فتر حماس الكبار ، نساء ورجالا ، ولم يبق الا الصغار •

في أحد أيام حزيران ، كان النهار في بدايته رطبا مشمسا ثم بدأت حرارته تقوى وتشتد • في ذلك اليوم ، سمعت سبع طلقات ، وقال الصغار ، فيما بعد ، ان شرطي البلدية قتل الكلاب • قتـل مرجانة أول الامر ، ورغم ان الطلقة استقرت في جانبها فقد أطلق عليها مرة أخرى ثم قتل الجراء الخمسة •

في اليوم التالى بينما كانت عربة القمامة تحمل جثث الكلاب الستة ، كان الغرابان يحومان حول العربه وينعقان بصرخات قاسية ، وقيل ان الحمار الذى كان يجر العربة أصابه الفزع وقلب كل شيء • وقيـل أيضا أن الغرابين لم يتوقفا طوال ذلك اليوم عن النعيق ومتابعة العربة •• والشيء المؤكد انهما لم يظهرا أبدا بعد ذلك اليوم في بستان الآغا !

كان يوما عصيبا حين جاء • جاء من مكان بعيد ، قطعوا به مئات الكيلو مترات حتى وصل •

في الزاوية قضي وقتا طويلا • لم يشترك مع الذكور الاخرى في استعراض ريشه البني المرقط الابيض ، أما ساقاه اللتان كانتا تميزانه عن الطيور الاخرى ، فقد بدتا ثقيلتين وعديمتي الجدوى ، وظن الكثيرون أن الثمن الذى دفعه القى في البحر •

لماذا يمتلك الانســـان هذا المقدار الكبير من البلاهة ؟ ولماذا يقطع المسافات الطويلة من أجل شيء لايستحق ؟

تردد هذان السؤالان ، وغيرهما الكثير ، في القرية • أما هو فكان يمتلىء اصرارا غامضا ان شيئا ما سوف يحصـــل ذات يوم • لم يكن يدرى ما هو هذا الشيء ، وكيف سيحصل ، لكنه كان واثقا الى درجة انه رفض الاجابه عن أى سؤال حول الثمن الذى اشترى به الطير ، ورفض أكثر من ذلك أن يتحدث عن مزاياه • أما في وقت سابق فلم يترك أحدا الا وتحدث معه وأطال كثيرا ، الى درجة ان المهرجان الذى تعودت القرية أن تقيمه في الايام المبكرة من الربيع جعل الناس تسرف كثيرا في تصور شكل الطير الذى سيأتى والبراعة التى ســـتبدو فى كل تصرفاته ، أما أصـــحاب طيور الحمام فى القرى المجاورة فقد خافوا خوفا حقيقيا ، رغم ان الرهان كان واضحا وحاسما :

« اذا استطاع ذلك الطير الذى دفع ثمنه محصـــول سنة كاملة أن يلتقط اكثر من انثى أو اثنتين فحرام علينا تربية الحمام » •

في الزاوية قضي وقتا طويلا ، وقع الندم ، وجاءت بعده المرارة ، أما شعور الخديعة فقد أصبح مسيطرا « لا يصدق هذى الدهر مربى حمام أو صياد » •

هل يمكن أن يحصل كل هذا ؟

في أحد الايام نفش ريشه ، في يوم آخـــر ترك الزاوية وجلس في شمس الربيع الدافئة ، في يوم ثالث قرقر واصابه شيء من جنـون وهو يتمشى في القفص الكبير ، أما حين تقرر أن يتركه ليطـير فـكان هناك خوف حقيقي من أن يفلت ويرجع من حيث أتي ، أو أن يصـبح فريسة لطيور الحمام الاخرى • طار وعاد فى اليوم الاول • كان طيرانه

مضطربا قصيرا ، حتى انه أثار ضحك الكثيرين ، وتأكدت الظنون السوداء التي امتلأت بها قلوبهم ولم يقولوها • أما ذكور الحمام الاخرى فقد كانت تنتفض في الشمس ، وتعاكر بقوة لكي تنطلق وتفترش الهواء ، وكانت تشعر بنوع من التحدي الغامض • واذا كانت الاناث قد حافظت على نوع من التمنع اللذيذ وتحدت ذكورها بصمت ، ونظرت من بعيد الى القادم الجديد ، فان ذلك ضاعف التحدي لدى الذكور وقواه كثيرا • ولولا الخوف الغريزي لحدثت أشياء كثيرة •

في أيام نيسان المتأخرة حصل شيء ما • شيء لا يمكن رؤيته ولكن تدركه الحواس بغموض وهو أقرب الى سير المياه أو هبوب الريح • ان أشياء مثل هذه تدركها الحواس فما لو كانت الظواهر لا تنبيء بها انتفض • انتفض أكثر من أية مرة سابقة • هاج وقرقر • أما مشيته داخل القفص الكبير فقد كانت بداية لعراك طويل • وهذا الذي حصل فجأة لم يبق سرا • انتشر كما تنتشر أوراق الخريف • لم يبق أحد في القرية الا وعرف أن الديك قد استيقظ في دماء هذا الطير • وانه قرر أن يبدأ لعبته الكبيرة •

منذ ذلك اليوم وحتى وقت متأخر لا يبدأ الحديث ولا ينتهي الا عن مشيته ، عن طريقته في التقاط الاناث كما يلتقط الحبوب ، وعن تلك القوة المليئة بالمكر التي تجعله يقود أسراب الحمام كما لو انه يلعب بها أو كأنه يمازح الرياح • ونظرات الذين يرقبون من أسفل هذه السباحة المجنونة تمتزج بكلمات الاعجاب •

واذا كانت الكلمات الجديدة قد اكتسبت رنينا لذيذا في أذنيه ، والنظرات أصبحت مشبعة بذلك التأييد الخفي ، فقد أصبح أكثر قوة واكثر قدرة على أن يفعل ما لا يفعله أحد • والرهان الاول لحقه رهان ثان ولحقته رهانات أخرى • ولا يعرف الخسارة أو التراجع • كان يصل دائما ، قد يصل متأخرا لكنه دائما يصل •

والناس الذين نظروا اليه من هذا الجانب واعجبوا به كثيرا رفضوا أن يتصوروه طيرا مثل باقي الطيور • كانوا يريدون ديكا ، وأبى ان يكون الا ما هو ، أما حين رأوه لاطيا في الزاوية الى جانب تلك الحمامة الصغيرة ، فقد بدأوا يسخرون :

— « كيف يقبل بهذه الجرباء ؟ » ، لو كان أصيلا لاختار واحدة وأكثر من الجنسيات التي تماثله لكي تخرج الفروع أقوى من الآباء والامهات معها » ، « انه مجنون مثل مجانين كثيرين » •

كان يريدها هي • كان يحب تلك السكينة اللذيذة التي تمنح

لعينيها شيئا من المسكنة . وكانت رغم كبر جسمها ، صغيرة واقرب الى الطاعة ، أما عندما يريد منها شيئا فكانت لا تعطيه الا بعد أن يتعب ويلهث .

ان شيئا ما حصل في هذه العروق المجنونة .

والناس الذين أحبوا طريقته فى المشى والطيران ، وبالغوا كبيرا فى تصور قدرته ، رفضوا أن يصدقوا طريقته فى الحياة . واذا كان الشباب في العصارى ، توقعوا الكثير منه ، زيادة على المشى بتلك الطريقة المتباهية والطيران الماكر ، وتحدثوا عن ذلك بصوت عال ليلفتوا نظر الصبايا ، فقد أرادوا منه أن يتصرف بفحولة جامحة ، كما تفعل بعض الحيوانات والطيور ، لكي يبالغوا بالضحك ويتكلموا بصوت عال كطريقة اضافية في الاغراء ، لكنه أبى ، ظل يمشى ويطير كما يريدون ، وظل يعيش كما يريد .

والمسنون الذين أبدوا اعجابهم بقوته ومكره لم يستغربوا كثيرا طريقته في الحياة . كانوا يرون ذلك أقرب الى الطبيعة ، وكانوا ينظرون الى أنفسهم !

جاء من نسله افراخ بعد أفراخ ، وهذه الافراخ تعلمت منه الكثير ، وتوارثت عنه الكثير . وجاء يوم غيرت القرية اسمها لتصبح قرية « برج الحمام » لان الحمام فى القرى الاخرى هجرها ليأتى الى هذه القرية ، وحتى الحمام الازرق البرى الماكر ، الذى تحدث عنه الناس بمرارة لصعوبة الوصول اليه فى الآبار العميقة التى يسكنها ، أو فى الكهوف القاسية بين الصخور العالية التى يضع فيها بيضه ، جاء أسرابا ، واحدا بعد آخر ، عن طريق هذه الاجيال الجديدة .

واذا كانت الايام بتواليها المستمر تجرف معها الصخور من أعالى الجبال ، وتسقط أوراق الاشجار ، وتقلع السكينة من القلوب ، فقد جاءت مثل هذه الايام على هذا الطير .

كان وهو يمشى في الشمس الدافئة وينظر الى الاسراب الكثيرة الملونة الغنية المتداخلة الاجناس ، تتملكه رغبة واحدة : أن يستمر فى الطيران ، وان يظل الى الابد معلقا بين السماء والارض . وكان يأبى أن يتخلى عن عاداته : عن الطيران وعن الحياة بطريقته .

ذات يوم ، وكان الربيع مرة أخرى ، شعر أن قواه تعاوده أكثر من أيام ماضية ، وشعر انه يريد أن يطير الى أماكن بعيدة ، وكان يريدها هى أن تطير معه . نفض ريشه ، دار حولها ، قرقر ، قال لها ان الفضاء المكان الوحيد الذى يستطيع أن يراها فيه ملكة ، ولما رفضت

أن تطير ، همس في أذنها انه لا يستطيع أن يبقى على الارض ويجب أن يطير . مشى بأبهة الملوك . بثقتهم . بقوتهم ، ثم انطلق .. دار في الجو دورات كثيرة . دار ونظر الى الارض ، وكانت حواليه الاسراب الكثيرة وهي تطير مفتونة . انها احدى المرات التي يشعر انه امتلك كل شيء . وحين رجع ، هبط بثقل على السطح ، كان يريدها أن تنتظره هناك . أن تتطلع في عينيه لتكشف الآفاق البعيدة التي وصل اليها . الاشياء الرائعة التي رآها ، لكنها لم تكن هناك . استراح قليلا وهبط وبحث عنها . كانت في الزاويه . نفسها التي جلس فيها أول مرة . كانت هناك اقترب . نظر اليها بتساؤل ، التفت الى الناحية الثانية . دار حولها ، استدارت ، ودار حولها مرة أخـرى . جلب لها بعض الحبوب لتأكل . نظرت اليه بحزن واسـتدارت مرة أخرى ، وحين خيمت الظلمة هبت معها ريح باردة . اقترب منها ليدفئها ، اقتربت منه حاولت أن تنام تحت جناحيه ، أن تتحد به ، وحين غفا هبت ريح باردة وشعر انه يقترب منها ، وانه يتحد بها .. ونام .

في الصباح ، رفض أن يصدق ، دار حولها ، قرقر أكثر من أية مرة انتفض ، استعمل قدميه ومنقاره ، ضرب جنـاحيه بالجدار . وحين فتح باب القفص ، بدأت نسمات الصباح تمتلىء بالدفء .

بدت ساكنة حين دبت الحياة في كل شيء . دار حولها ، دار مرة أخرى ، لكنها ظلت باردة ، ثم بعد قليل بدأت تجف .

خرجت الاسراب . خرج الصغار والكبار ، وظلت في مكانهـا : حين جاءوا نظروا اليها بأسف ثم أخرجوها من هنـاك ، مشى وراءهم حتى نهاية القفص ، أما حين نظر في عيونهم ، وامتلأ بتأكيد اخـرس فقد تراجع بذعر الى الزاوية نفسها .

وفي الزاوية نفسها ، بعد ثلاثة أيام ، حملوه من هناك . كان يابسا وتساقط منه ريش كثير من العرف والساقين وهو يرمى بعيدا .

- ٥ -

لا أحد يستطيع أن يؤكد بثقة أصــــله • يقـولون انه ابن ذئبـه ويقولون انه كلب من الجبال البعيدة • ويقـولون انه كلب مثل باقى الكلاب وليست له أية ميزة • ولكى يثبتوا ذلك يقولون : عندما يصبح كان نباحه أقرب الى الذئاب • أما اذا صمت وارتكن زاوية فى الظل فيقال : « غدار ، ولا يدرى أحد متى يجن » •وحين يختلفــون فى تحديد اصله ومزاياه ينتهون الى تلك الكلمات المزدرية التى تعـودوا عليها :

كلب ابن كلب •• ولا شىء غير ذلك !

كان منذ البداية كثير الحركة ، سريع الهيجان ، أما أذناه المتهدلتان فلم يتصور احد أنهما تقفان فى مقدمة رأسه وكأنهما القرون الصلبه• كان اذا سمع صوتا ، مهما خفى الصوت ، تشرئب أذناه بطريقة تثير العجب ، اما عيناه فكان فيهما حول أو بقايا دموع ، حتى يظن من يتطلع اليه أن غباشا يمنعه من الرؤية ، وقد وصف أحد الرعاة الكلب بأنه « اعمى ولا فائدة منه » وقال آخر « ان له أنفا يشبه أنوف كلاب الصيد » •

كبر بسرعة ، واكثر مما توقع له معظم الذين رأوه صــغيرا كان يكبر كل يوم ، وكان يصاب بلحظات طويلة من الجنــون ، ولا أحد يعرف متى أو لاى سبب • وفى بعض الاوقات كانت الشكوك تراود ذلك الشيخ الذى اختاره ليكون صديقه فى هذه الفلاة الكبيرة ، لماذا اختاره من بين ستة جراء ؟ ما الذى أقنعه انه أفضلها وانه أصلحها له؟ ان شيئا ما دخل فى قلب الرجل فجأة • نظر الى الجراء ، واحدا بعد اخر ، قلبها ، واختاره • لم يكن أكبرها أو أكثرها وسامة ، ولــكن شيئا ما قال له أن يختاره •

لم يعطه فى البدايه أى اسم ، ولم يمهله سوى ثلاثة أيام قطع بعدها الجزء الاكبر من ذيله ، لكى يكون أكثر شراسة ، كما سمع وعرف من أهل القرية ، أما مسألة تدريبه على أن يكون معه وأن يسمع كلماته ويفهمها فقد استغرقت زمنا طويلا !

فى وقت متاخر أصبح اسمه الصل • وقد انزلق عليه هــذا الاسم

بشكل خفي وغامض . أما الاسماء الاخرى :المقطوع ، الاشهب ، الاعور، الجني . فقد تراجعت واحدا بعد الآخر حتى استقر على هذا الاسم

ان حياة الكلاب وتصرفاتهـا من الغرابة الى درجة تثير في نفس الانسان أعظم الاسئلة وأخطرها !

لم يتعود بسرعة ، لكن عندما بدأ يتعود استقرت تلك العادات في عقله بشكل أقرب الى الغريزة .. أما الكلب الآخر ، والذى كان يكبر الصل بسنتين فلم يعد شيئا بالنسبة للشيخ بعد أن بلغ الصل شهره الثامن . بدأ أكبر حجما وأكثر قوة وانتباها ، ويبدا وكأنه مسئول عن كل شيء ولا يثق الا بما يفعله . ربمـا كان الدافع في ذلـك الزحف الملعون الذى يرميه في مقدمة شلعة الغنم بعيدا عنها ، لـكن في موقع يراها كلها .

ينام عند بوابة الحظيرة ، وهذا المكان اختاره لنفسه ولم يختره له أحد ، وكان قبل أن يطلع الفجر ، وبطريقة عجيبة ، يبدأ تلك الحركات الرياضة المضحكة : يزحف على بطنه مسافات طويلة ويداه ممدودتان وتشكلان مجاديف قويه تسحبانه بآلية سريعة ، وبعد تلك الحـركات يبدأ يدور دورات سريعة أقرب الى الجنون . كان يدور حول نفسه ، وكأنه يلاحق ذيله * وكلما رأى الذيل المقطـوع يبتعـد ، يسرع في دورانه ، وكأنه سيدركه في اللحظة التالية ، واذا كان الشـيخ قد أحبه بسبب غامض ، فان هذا السبب ذاته جعله شديد الاقتناع بأهميته وقدرته ، رغم ضحكات السخرية التي كان يطلقها الذين يرونه يدور بتلك الطريقة .اما الهمسات فقد تزايدت لتصبح حديثـا علنيا واضحا : ان صاحب الغنم سوف يستغني عن الشيخ بعد أن أصبح عاجزا ، وبعد وقوع حوادث سرقة أو ضياع متكرر .

حياة الشيخ والصل تكتسب بمرور الايام تلك الخاصية النادرة ، والتي قلما تجتمع لاثنين ، حتي لو كانا من البشر : يتحدثان . يفهمان بعضهما بأقل الاشارات وأكثرها خفاء ، يعرفان متى يجب أن تبـدأ الرحلة ومتى يجب أن تنتهي . أما في أيام الشتاء الباردة ، قبل سقوط المطر . وقبل أن تجن الطبيعة وتغير جلدها ، فقد أصبح الصل أكثر قدرة من الشيخ على فهم أسرار الكون ، خاصة وان الزكام المرافق لخشمة الصدر لم ينته عند الشيخ وانما أخذ يزداد بتقدم العمر .

واذا بدا الشيخ أكثر ثقة بنفسه ، وحتى اكثر شبابا ، فقد حرص على ألا يتحدث عن الصل ، لكن والايام تمضي ، والرعاة الآخـرون يتابعونه ويرقبونه ، اكتشفوا فيه صفات لا تتمتع بها كلاب الحراسة

الاخرى ، • كان قليل الحركة ، كثير الصمت ، وكان حازما الى درجة ان طريقته في النظر الى الغنم المتأخرة أو دفعها اتسمت بالرهبة والخوف • لكنه لم يكن يفعل ذلك الا في الحالات النادرة ، واذا تعودت معظم كلاب الحراسه أن تقف على جوانب الغنم أو في مؤخرتها لتحرسها وتدفعها ، فقد كان الصل يفضل البقاء في المقدمة ، ليس في أى مكان من المقدمة ، وانما في مكان مرتفع ، وعلى مسافة بعيدة نسبيا• وهذه الطريقة التي أخافت الشيخ في البداية وجعلته شديد الحذر من « ابن الملعون » ، لانه في بعض اللحظات يذهب الى مسافة أبعد مما يرى الشيخ أو يطيق ـ هذه الطريقة جعلته يفكر أكثر من مرة أن يتخلص منه ، لان الغنم تخاف الصوت ، وتخاف من تلويحه اليد ، وتخاف أيضا من شراسة بعض الكلاب وهي تعضها من أرجلها أو جنوبها لتدفعها الى الحركة اما أن يكون الصل على هذه المسافة ، وينظر الى القطيع هذه النظرة المتكبرة فقد جعلت الشيخ يضربه ذات يوم بمقلاعه وينتزع عينه. لكن الحياة تعلم الكثير ، اذ لم تمض شهور حتى أصبح الصل كل شيء ، وعندها أصبح الشيخ ينام أو يغيب في أحلام بعيدة ، كان في بعض الحالات ينسى انه راع لقطيع من الغنم ما دام الصل موجودا !

القصص التي تروى عن مكر الصل وقدرته ونشاطه لا تحصى ، وأحاديث الرعاة يختلط فيها الحسد بالتقدير • أما عن المرات التي سافر بها الصل بالطائرة ليعود بقطعان جديدة ، ومن أماكن بعيدة ، فقد أصبحت مثارا للتندر والسخرية ، ما يكاد ينعقد مجلس حتى تنهال الاسئلة بطريقة ماكرة •

ـ « من ركب الطائرة أكثر : الصل أم الشيخ ؟ » : « هل يستطيع المختار أن يدفع ثمن بطاقة الطائرة أم يأخذونه مع الصل ؟ » •

ـ« اذا كان الصل يركب الطائرات فلماذا تستغربون عندما ترونه مجنونا ومتكبرا وهكذا » •

انقضت أيام كثيرة ونوع من الحياة أقرب الى اللذة يطغى على حياة القرية ، ويجعل لها طعما خاصا ، حتى وقع ذلك الشيء :

في أحد الايام اختفى الصل • بحث عنه الشيخ طويلا • بحث عنه في كل مكان • سأل عنه جميع الناس • انتظر أن يعود في المساء • فكر أن أحدا سرقه أو قتله ، لكن لم يجد له أثرا • ومع ذلك لم ييأس لحظة واحدة • كان متأكدا أنه سيجده ••

في اليوم الثالث ، وفي خبرة من تلك الخبرات التي ترتادها الغنم،

ولا يعرف كيف لمعت هذه الفكرة فى ذهنه هكذا ، لكنه كان متأكدا أنه سيجده هناك .

قبل أن يطلع الفجر كان الشيخ بكل قوته يحاول اخراج الصمل من الخبرة ، كان غارقا فى الماء حتى عنقه ، كان رأسه فقط فوق الماء ، كانت عيناه حمراوين ولسانه متدليا ، وكان بين الحياة والموت !

بذل الشيخ محاولات لا حصر لها من أجل اخراجه من الماء ، لكن جميع المحاولات انتهت الى الفشل ، اذ ما يكاد يخرجه حتى ينفلت مرة أخرى ويغرق نفسه فى الماء باستسلام يائس !

عصر ذلك اليوم انتهت محاولات الشيخ .. وانتهى الصمل .

بعد يومين كانت القرية كلها تسير بصمت فى جنازة الشيخ !

جاء في كتاب الحيوان للجاحظ :

... وذكر أبو عبيدة النحوي ، وأبو القظان سحيم بن حفص ، وأبو الحسن المدائني ، وذكر ذلك عن محمد بن حفص ، عن مسلمة ابن مارب ، وهو حديث مشهور في مشيحة أصحابنا من البصريين ، ان طاعونا جارفا جاء على أهل دار . فلم يشك أهل المحلة أنه لم يبق فيها صغير أو كبير . وقد كان فيها صبي يرتضع ويحبو ولا يقوم على رجليه ، فعمد من بقي من المطعونين من أهل تلك المحلة الى باب تلك الدار ، فسده .

فلما كان بعد ذلك بشهور ، تحول فيها بعض ورثة القوم ففتح الباب ، فلما أفضى الى عرضة الباب ، اذا هو بصبي يلعب مع جراء كلبة وقد كانت لاهل الدار ، فراعه ذلك ، فلم يلبث أن اقبلت كلبة كانت لاهل الدار ، فلما رآها الصبي حبا اليها ، فامكنته من أطبائها فمصها فظنوا أن الصبي لما بقي في الدار ، وصار منسيا ، واشتد جوعه ، ورأى اجراءها تستعين من أطبائها ، حبا اليها ، فعطفت عليه ، فكما سقته مرة أدامت ذلك وادام هو الطلب ، والذى الهم هذا المولود مص ابهامه ساعة يولد من بطن أمه ، ولم يعرف كيفية الارتضاع ، هو الذى هداه الى الارتضاع من أطباء الكلبة ، ولم تكن الهداية شيئا مجعولا في طبيعته لما مص الابهام ، وحلمة الثدى ، فلما أفرط عليه الجوع ، واشتدت حالته وطلبت نفسه ، وتلك الطبيعة فيه ، دعته تلك الطبيعة وتلك المعرفة الى الطلب والدنو ، فسبحان من دبر هذا ، والهمه وسواه .. ودل عليه .

لماذا نشأ هذا العداء بينه وبين الانسان ومتى ؟ ولماذا تروى القصص الكثيرة عن الشؤم الذى يحمله اينما حل ؟

لا أنكر ان مشيته شديدة الاثارة ، وهى أقرب الى التكبر ، ولا أنكر انه يحب البحث لساعات طويلة فى المزابل ، وقد يقضى عمره هناك .. أما صوته فقد كان صوتا كريها فى البداية ، لكن ما لبث أن أصبح يشبه أصوات طيور كثيرة ، ليس أجمل منها بطبيعة الحال ، لكن ليس أكثرها قبحا . ان الاصوات والاشكال مخترعات الانسـان وأفكاره يضفيها على المخلوقات لسبب أو آخر .

ان هذه الامور معروفة . أما انه طير ميـال الى السرقة ، ويسرق جميع الاشياء التى يقع عليها نظره ، التى يقدر على حملها ، سـواء أكانت نافعة أم لا ، فأمر يحتمل النقاش الطويل ، لان بعض النـاس يروون قصصا كثيرة عن ذلك : واناس آخرون يبتسمون ابتسـامة أقرب الى الشفقة وهم يسمعون تلك القصص ، ويعزون المبالغة التى تميزها الى نوع من العداء بينه وبين بعض الناس ، خاصـة أولئـك الذين يملكون أشجار الجوز ان لهذا الطير غراما خاصا بالجوز ويفضله على أى طعام آخر ، واذا كان كل طير يحب لونا من الطعام ويفضـله على غيره ، فان هذا من حقه ولا يمكن أن يوجه اليه اللوم بسبب ذلك !

لا يتخلى أبدا عن مسافة الامن الضرورية بينه وبين الناس ، وهذه المسافة لاتقاس بالامتار أو الخطوات وانما لها مقياسها الخاص ، وهى تختلف من انسان لآخر . المسافة بينه وبين الفلاح لا تزيد عن بضعة أمتار أغلب الاحيان ، أما تلك التى تفصله عن الصيادين فانها كبيرة الى درجة لا يدركها آلا من جربها ، وبالرغم من ان لحمه لا يؤكل ، فقد ترسب فى أعماق الصيادين شعوران مختلفان ، بعض الصيادين لايكاد يراه حتى تظلم روحه ويمتلىء احساسا بالخيبة ، وقد يعزو اليه سبب الفشل الذى لاقاه فى يومه ذاك ، وبعضهم لا يكاد يعتبر المسافة بينهما كافية ، وبطريقة مليئة بالمكر ، حتى يطلق عليه النـار ، أما عـدد الطلقات الخائبة التى أطلقت على الغربان فلا يحصيها أحد .. لكثرتها

ذات يوم قررت أن أقضى طوال بعد الظهر فى مراقبـة زوج من الغربان كان لهما عش على شجرة جوز فى نهاية البستان المجاور للبيت

الذي أسكنه • مثل هذه العملية لا تروق لانســان آخر ، وربما لم تكن تروق لى لولا حالة الضجر التى ملأتنى فى تلك الفترة ، بعد ان سمعت قصة عن رجل احترقت زوجته ، وكان يسكن فى حينا • والقصة خلفت أسى كبيرا في نفوس الكثيرين وقتا طويلا ، ليس حزنا على المرأة المحترقة فقط بل لانها تركت ستة أطفال ، كانت الكبيرة فتاة لا تتعدى العشر سنين • ورغم ان الحادثة كما رواها الناس كانت قضاء وقدرا فان همسا انتشر فى وقت لاحق ، يؤكد ان المرأة أحرقت نفسها بعد أن يئست من الحياة القاسية التى كانت تعيشها •

كلما أتذكر هذه القصة أحس بحـزن جارف يملأ نفسي ، رغم انى لا أعرف هذه العائلة ، ورغم أن ما وقع لها لا يمثــل قمة المأساة فى هذه المدينة الكبيرة التى تقع فيها كل يوم عشرات الحوادث •• حوادث الانتحار والقتل والاعتداء •• ولا أعرف أية مصائب أخرى !

لو انتهت القصة عند هذه الحدود لطواها النســيان بعد فترة من الزمن ، كما يطوى عشرات القصص الاخرى ، لكن قبل أن ينقضى الشهر الثانى على الحادثة تزوج الرجل ، واشترطت الزوجة الجديدة ، لكي تقبل به زوجا ، أن يتخلى عن الاولاد ، وكان أصغرهم لا يتجاوز الاربعة شهور • ودون تردد وافق وتزوج ، وانتشر خبر زواجه بسرعة أكبر مما انتشر خبر موت الزوجة ، أما أين ذهب الاولاد وكيف تصرف بهم فان الناس يختلفون فى رواية التفاصيل • قيل انه خلال اسبوع لم يفعل شيئا سوى ضربهم ، حتى الصغير ، وكان يريد بهذه الطريقة أن يهرب الاطفال ويذهب كل واحد الى أي مكان يختاره في المدينة الكبيرة• وقيل انه ترك الاطفال يومين دون طعام بحيث ان الصغير مات بعد أن انتقل الى بيت أحد الجيران ، وكان أقرب الى الموت منه الى الحياة ، ولم تنقذه الرعاية المتأخرة التى قدمت اليه • وقيل أن أهل الزوجة جاءوا وأخذوا الاطفال بعد أن سمع عدد كبير من الجيران بكاءهم وأبلغــوهم بذلك •

أما حين سئل الرجل عن الاولاد ، وتم ذلك بعد الزواج ، فقيــل ان الحزن بدا واضحا على وجهه ، وكاد يبكي ، وأكد ان أهل الزوجة سرقوا الاطفال أثناء غيابه ، وانه لم يقو على الحيـــاة يوما واحدا فى البيت الفارغ ، الامر الذى اضطره للزواج خــوفا من الجنــون أو الانتحار !

هذه الحادثة ، أو ربما غيرها ، ولدت فى نفسى ذلك الشعور العميق بالحزن •• وفي ظهيرة ذلك اليوم من أيام آب تخليت عن عـادتي فلم

أنم ، وجلست قرب الشباك الواطىء المطل على البستان أرقب الاشياء بصمت أخرس ، واعترف انني أكثر ما استهواني وشغلني عن كل ما حولي زوج الغربان : كانا لا يتوقفان لحظة واحدة ، كانا لديهما شيء يفعلانه • واذا تخليت عن الكثير من التفاصيل ، الاقرب الى الحماقة ، فقد رأيت شيئا عجيبا : رأيت الغرابين بعناد أقرب الى الجنون يعاركان حبات الجوز ، حتى اذا حصل أحدهما على حبة يأتي الآخر ويقشرها بكثير من الصبر والمثابرة ، فاذا انتهى أخذها وطار عاليا ، كان طيرانه مدوما وثقيلا ، وتصورت في البداية أنه ينقلها الى العش ، لكن عندما أخذت زاوية أخرى مقابل شجرة الجوز لارى كيف تنتهي اللعبة ، كنت ألمح الغراب يبتعد حتى يصل الى بداية السفح القريب ، ومن ارتفاع شاهق يلقي بحبة الجوز فاذا تحطمت من أول مرة حمل أجزاءها ، جزءا وراء آخر ، وعاد بها الى العش ، أما اذا لم تتحطم فكان يلتقطها مرة أخرى ويفعل ما فعل في المرة الاولى ، وقد يتكرر الامر عدة مرات حتى تتحطم حبة الجوز • فعلا ذلك مرات كثيرة، وفي احدى اللحظات رأيت الغرابين يقطفان عددا من حبات الجوز ويدفنانها في زاوية البستان ، قريبا من السور ، ولا أبالغ اذا قلت انهما اختارا أصعب الامكنة واكثرها خفاء •

راقت لي اللعبة كثيرا وأزالت من نفسي بعض الاحزان ، وتعلمت ان كثيرا من الطيور تتمتع بذكاء كبير !

أما ما حصل بعد ذلك فكان أعجب • يبدو أن صاحب البستان ضاق بهذه الغربان وتخير وقت الغروب لكي ينتهي من تدمير عشهما ، لانه اذا استطاع تدمير العش فلابد أن تهجر الغربان البستان وتبحث عن مكان آخر •

ربما فكر في الامر وقتا طويلا ، لانه حين تخير ذلك الوقت ، وحين ربط نفسه بحبل ووضع في وسطه عصا قصيرة وقوية ، فلابد أن يكون قد فكر بالامر واستعد له •

كان العش في مكان عال من شجرة الجوز ، وكان الوصول الى هناك من الصعوبة بحيث ان الغرابين ، وهما يحومان حول الشجرة ويقتربان ويبتعدان عن العش ، كانا من الثقة والفخامة الى درجة انهما نظرا الى هذه المحاولة نظرة مليئة بالسخرية • كانا متأكدين ان المكان من البعد والحصانة بحيث لا يمكن أن يصله الانسان • أما وذلك الفلاح يزحف بعناد ويحرك الحبل بتلك الطريقة الواثقة والماكرة ، فقد كان يرتفع ببطء لكن بثقة • والغرابان اللذان كانا يقتربان ويبتعدان بتلك الطريقة

الفخمة ، وهجماتهما تقترب وتبتعد وتمتلىء بالسخرية والتحـــذير ، ما لبثا أن أحسا بالخطر وبذلك الاصرار الذى يملأ الرجل • عند ذاك بدأت الدائرة التي يدوران فيها تضيق ، وبدأت صيحاتهما تتســـم بذلك المقدار الكبير من التحذير • والرجل بجسمه النحيل ، بصعوده الواثق ، يقترب أكثر فأكثر من العش •

كنت أرقب كل ذلك بصمت وانفعال • كنت في بداية الامر محايدا تجاه هذه المعركة التي تجـــرى أمامي • وكانت القصص الكثيرة التي سمعتها عن الغربان تثير في نفسي الحذر ونوعا من عدم الاحترام • وقد أستطيع أن أقول : الاحتقار ، لكن والرجل يرتفـع ودورة الغـــربان تضيق ، وتلك الرائحة التي هبت مع الغروب ، بدأت أشعر أن شيئا خطيرا لابد أن يقع • كنت أخاف على الرجل أن يسقط ، كنت أخاف أن تلتوى شجرة الجوز النحيلة وتقصـــف تحت ثقلـه • كنت أخاف أن يهوى العش من الاهتزاز القوي وتتساقط الفراخ •

الظلمة تقترب بنعومة خفية ، الرجل يرتفع ، الغـــربان بصرخاتها وطيرانها الخشن تدوم بطريقة أقرب الى التحدى ، أما عنـــدما بدأت صرخات الفراخ الصغيرة في العش ترتفع فزعة مستغيثة ، فقد شعرت ان شيئا أقرب الى الخطر لابد أن يقع •

فى تلك اللحظات المليئة بالتوتر والخـوف والمعزولة عن لحظـات الزمن العادية بدأ شيء عجيب :

صرخات متوجعة قاسية تملأ الدنيا ، أحد الغرابين دار حول راس الرجل دورة مليئة بالعنفوان والبسالة ، وخفق بجناحيه بصخب أقرب الى الدوى ، وارتفع حتى استقر في العش • أما الغراب الآخر فقد بدأ يدور حول الشجرة بين العش ورأس الرجل ، وبدا بحـــركته وكأنه حجر مربوط بخيط ويدور فى تلك المسافة التى تضـــيق كل مرة مع الامتداد البطىء والارتفاع •

كان الرجل مصرا • كان واثقا وحذرا • والفراخ التي أصابها الفزع بدأت صرخاتها تتباعد وتأخذ نغما مختلفا ، أما الغراب الذى كان يدور فقد أصابه الجنون ، وكان جنونه يتصاعد ويحتد مع كل خطوة جديدة

ان أية كلمات لا تستطيع أن تعبر عن اللحظات الاخيرة • فعنـــدما اقترب الرجل ، ولم تبق الا خطوة واحدة وامتدادة اليد ، جنت الدنيا وانقلب كل شيء • لم تعد الفراخ تعرف التوقف عن الصراخ الفزع ، ولم يعد الغراب الكبير فى العش قادرا على البقاء بذلك الوضع الساكن

أما الغراب الآخر فقد تخلى عن الدوران ليبدأ معـــركة جديدة : أخذ ينقض بشكل عمودى على الرجل ، ينقض عليه مباشرة ، كان يضربه بجناحيه ، يضربه بجسده كله ، وكان ينخر ويخرمش ، والرجل بين أن يواصل صعوده ، وبين أن يدافع عن نفسه • وفى لحظة أقرب الى الظلمة انتهى كل شىء ، انقض الغراب ، وبطريقة ما ، لم تفـهم أبدا حتى الآن ، انتزع عين الرجل ، والرجل بين الاصرار والتحدى انتزع عصاه القصيرة القوية وهوى بها • وفى لحظة واحدة كانت صرختان •• صرخة الرجل ، وصرخة الغراب الذى سقط من قوة الضربة •

فى اليوم التالى نقلت الانثى الفراخ الى مكان آخر • وفى اليوم نفسه كانت تبحث بمخالبها عن حبـــات الجوز بين الاشـــواك ، فى زاوية البستان ، وتنقلها واحدة بعد أخرى •• الى مكان آخر •

هجمت أيام دافئة في آذار ، وحملت معهـــا روائح الارض وتفتح الطبيعة فازدهرت بعض الورود المبكرة وبدت أوراق الأشجار الصغيرة المائلة الى الحمرة مفتونة بتدفقها المبكر وأضفت على الجو سكينة أقرب الى الخدر •

قال أحد الرجلين المسنين المتدثرين بعباءتين من الوبر وهما يطـلان من الشباك العريض على الحديقة الواسعة :

ـ سيكون صيف هذه السنة حارا ، لان دفء آذار جاء قبل أوانه •

قال الرجل الآخر بصوت خافت ملء بالحشرجة :

ـ دفء آذار خداع •

قال الاول :

ـ العادة ان بعد آذار شتاء آخر ، لكن هذه المرة يبدو ان الصيف قد بدأ ولن يأتي الشتاء مرة أخرى •

ـ ألم تسمع بالمثل الذي يقول : خبىء حطباتك الكبـــار لعمتـك آذار ؟

ـ ولكن ألا ترى الدفء الآن ؟

ـ مرت أيام دافئة كثيرة في سنوات سابقة ، لكن بعدها جاء البرد والطوفان •• وسقط الثلج في نيسان •

ـ يبدو أن دورة الطبيعة تغيرت كثيرا • أيام كنا صغارا كان البرد لا يتوقف طوال الشتاء ، وكنا نزيح الثلـج عن أبواب البيـــوت في نيسان •

ـ أيام قديمة ومضت ••

ـ صحيح •• ولكن من يدري !

واستمر الرجلان يتحدثان برتابة أقرب الى المجـــاملة ، لم يكونا متحمسين لشيء ، وحتى الدفء الذي يعبق بين فترة واخرى كان يبدو عاديا رتيبا • أما حين دخل الخادم حاملا للقهوة فقد خلق تغييرا في الجو •

قال الضيف :

ـ الله يعطيك العافية يا سالم ••

توقف قليلا ، تغير صوته وأضاف :

ـ لقد قمت بالواجب كاملا • لولاك ، لكان الامر صعبا •

قال الخادم كلمات غامضة أقرب الى الغمغمة ، مع حركات بسيطة تحمل معنى التواضع والحزن في الوقت نفسه •

الرجلان لا يزالان يرقبان الحياة من وراء الزجاج ، يرقبان الاشجار والزهور والهواء الخفيف الذى يداعب الاوراق الغضة المتفجرة ، ويغيبان فى ذكريات بعيدة ، يتذكران أشياء لا حصر لها •

في الحديقة ، كان عصفوران يطيران بتناغم لذيذ • كانا يطيران بتلك الطريقة الشيطانية ، يطيران ويحطان بعبث أقرب الى الحماقة • كانا يفعلان ذلك بطريقة لا يمكن أن تبقى سرا أو تخفى على أحد ، وما دام الرجلان لا يجدان الكثير ليقولاه فقد شعرا انهما مرتبطان بطريقة آلية الى هذين العصفورين • كانا يراقبان ، يتابعان ، يتبادلان النظر دون كلمات • وحتى الافكار والكلمات التى كانت فى الحناجر تراجعت • ان أشياء طريفة تجرى أمامهما الآن والعصفوران فى هذا العبث لا يتوقفان ، لا يهدأان ، كانا يريدان أن يندمجا بالطبيعة ، بالكون ، ان يصرخا بقوة ، وكانا يريدان أن يقولا كم هو لذيذ الدفء، وكم هى جميلة الحياة !

كان الخادم يراقب من بعيد ، بعد أن جلس في الشرفة الخارجية وبين فترة واخرى يطل على الرجلين ، كان يريد أن يتابع شيئا يحسه ولا يعرفه ، لم تكن لديه أية أفكار ، أو كلمات • لكن كان يحس كل شيء حوله يتفجر ،، يصرخ •• وكان يحس أن زلزالا يمكن أن يقع •

الرجلان يرقبان ، العصفوران يطيران بهياج ، الخادم يفتح منخريه بشهوة ويتمنى لو يتعرى ، لو يتحد بشيء ما •• بالطبيعة •

صرخ صاحب الدار ليتغلب على جو الرقابة :

ـ سالم •• قهوة يا سالم •

وحمل سالم نفسه من مكانه بقوة • صنع القهوة وعاد بها على مهل ، قال الضيف :

ـ لولاك •• ياسالم لخربت الدنيا •

هز سالم رأسه بتواضع وخجل •

قال الضيف يخاطب صديقه :

ـ سالم كان الاول والاخير •• حتى الذين دفعنا لهم الفلوس ليقوموا بالواجب لم يفعلوا شيئا !

وبهدوء انسحب سالم الى الباحة الخارجية •

كانت الطبيعة بتدفقها السخى تملأ الدنيا برائحة خاصة ، وكانت

الاشجار بانطلاقها الاقرب الى الجنون تتغير كل لحظة ، أما العصفوران فلم يتوقفا عن المداعبة لحظة . كانا يواصلان لعبة جميلة .
في لحظة ما ، بطريقة ما ، وبتلك السحبة المجنونة العابثة المليئة ، ولا يتذكر سالم بدقة كيف حصل الامر ، وكان العصـفوران يطيران بشكل سريع ، وكأنهما في سباق أهوج ، أو كأن رهانا بينهما ، في تلك اللحظة المليئة بمعان لا يمكن التعبير عنها ، وبسرعة غامضة كأنها الومض ، تصور أحد العصفورين انه يستطيع اقتحـام كل شيء ، وفجأة وبطريقة أقرب الى شيء ما ، وفي نطاق اكتشاف أماكن جديدة ، وبطيران يشبه النيازك ، فجأة .. اصطدم أحد العصـفورين بذلك الزجاج اللماع الشفاف الصافي الذي كان يطل من ورائه الرجـلان ، وسقط :
قال أحد الرجلين وهو يرقب العصفور حين اصطدم بالزجاج وسقط:
ـ ومن الحب ما قتل !
ضحك الرجل الاول وردد وراءه :
ـ نعم .. ومن الحب ما قتل !
سقط العصفور على الارض . كان في حالة من الفـرح المتألم أقرب ما تكون الى الضحك .. أو المضاجعة . كان يتقلـب في كل لحظـة وكأنه يفترس كل شيء ، أما العصفور الآخر ، الذي بدا له أن الامر لا يتعدى تلك الدعابة العابثة المجنـونة ، فقد أصابه الذعر ، أحس ان شيئا ما قد حصل .
كل شيء وقع فجأة وبسرعة أقرب الى الخيال . دار العصفور الآخر، وقف ، انتظر ، اقترب ، مد منقاره ، حاول بمخالبه ، والعصـفور الذي تلقى الضربة يدور بتلك الطـريقة التي تشبه ذبابة مذبوحة . كان يدور دورانا مرعوبا يائسا ، وبعد لحظات بدأت حركاته تخفت الى أن تلاشت . قال الرجل الاول :
ـ هل رأيت ماذا يصنع العشق ؟
قال الرجل الثاني وهو يضحك بصخب :
ـ كما قلت : ومن الحب ما قتل !
كان سالم يسمع . وبهدوء نهض ليتأكـد ان كان الطـير لا يزال حيا أو مات .. كانت الجثة الصغيرة لا تزال دافئة حين استقرت على راحة يده ، لكن الحياة فارقتها .. هز العصفور جسمه ، مرة ثانية ، لكن الحياة كانت قد تخلت عن ذلك الجسد . وتذكـر سـالم الايام السابقة ، خاصة يوم الاحد من الاسبوع الفائت .

كان الضيف يسأل أولاده باهتمام :
ــ هل صليتم عليها فى المسجد الكبير ؟
وحين يؤكد له الاولاد ذلك يسأل من جديد :
ــ من سار في مقدمة الموكب ؟ كيف كانت تبدو الوجـوه ، كيف كان صوت المرتل ؟ من هم المدفونون الى جانبهـــا ؟ وهل جاء أحـد لا أعرفه ؟ وهل استغرقت العملية وقتا وطويلا ؟

كان الرجل يجلس فى منتصف الصالون الكبير ليتقبل التعـازى ، وكان بادى الحزن وبادى الحزم ، لكن كان شديد التيقظ أيضا ، كان يسأل عن كل الذين جاءوا ، وكان يسأل أكثر من ذلك عن الذين لم يأتوا •

وكان يردد بصوت صلب بين فترة وأخرى :
« واذا جاء أجلهم •• »

تذكر سالم ذلك كله ، وما كاد يحمل العصـــفور بين يديه ليلقيه خلف السور حتى سمع اصطداما قويا فالتفت : رأى عصفورا آخر • يسقط في المكان نفسه • تطلع بخوف • رأى المشهد نفسه • ومرت في ذهنه الصور نفسها • لكن لم يستطع أبدا أن يقدر ان كان العصفور الثانى هو العصفور نفسه الذى كان يطارد الاول أم أن عصـــفورين جديدين كانا يعبثان وحصل الذى حصل !

جاء في كتاب الحيوان :

وفي الجرذان جنس له عبث بالنقود والشفوف والدراهم وخشخشة الحلي ، وذلك انها تخرجها من جحرها في بعض الزمان فتلعب عليها وحواليها ، ثم تنقلهــا واحدا واحدا ، حتى تعيــدها عن آخرها الى موضعها ، فزعم الشرقي ابن القطامي ، ان رجلا من أهل الشام اطلع على جرذ يخرج من جحر دينارا فلما رآه قد أخرج مالا صــالحا استخفه الحرص فهم أن يأخذها ، ثم ادركه الحزم وفتح له الرزق المقسوم بابا من الفطنة ، فقال : أنا أمسك أن آخذها ما دام يخرج ، فاذا رأيته يدخل فعند أول دينار يغيبه ويعيده الى مكانه أثب عليه فاجترف المال قال : ففعلت ، وعدت الى موضعي الذي كنت أراه منه ، فأقبل يخرج ما شاء الله تعالى ، ثم أخذ دينارا فأدخله ، فلما عاد ليأخذ دينارا آخر فلم يجد الدينار ، أقبل يثب في الهواء ، ثم يضرب بنفســه الارض حتى مات .

وهذا الحديث من أحاديث النساء وأشباه النساء .

« ركس » كلب صغير أبيض بلون الثلج ، شعره كالخراف الصغيرة بنعومته المتجعدة يتدلى على عينيه اللتين لا تظهران الا كشقين صغيرين متداخلين بمعالم الوجه • أما ابرز شيء فيه فذلك البوز الدقيق ثم المقطوع فجأة لينتهي بلون بين الحمرة والسواد ، وهذان اللونان قلما نجدهما مجتمعين بذلك الانسجام الاخاذ !

يقضي ركس معظم وقته في البيت ، ولا يسمح له بالخروج الا نادرا ، وبصحبة أحد ، وهذه الرياضة جزء من حياة القرية الصغيرة ، اذ لا يكاد يخرج بصحبة الميجر حتى يصبح موضع اهتمام الناس ونظراتهم ثم أحاديثهم • كيف يتصرف ، كيف يرفع رأسه عاليا ليتمعن بوجوه الناس الذين ينظرون اليه ، كيف يرفع ساقه ليبول • أما أكثر ما كان يثير اهتمام واستغراب الناس فالطاعة التي يكنها للميجر ، اذ لا يكاد يصرخ عليه تلك الصرخة ، القصيرة الحادة ، حتى يصيبه الذعر ، فيتوقف عن أي شيء كان يفعله أما اذا طلب منه العودة أو أن يكف عن النباح ، فلم يكن يتردد أبدا •

هذه العلاقة ، وأسباب أخرى أيضا ، جعلت نظرة سكان القرية الى الميجر يمتزج فيها الخوف بالتقدير ، ويشوبها الغموض أيضا ، حتى أصحاب كلاب الصيد كانوا يستغربون هذه الطاعة ، ويتمنون في أعماقهم لو استطاعوا تدريب كلابهم بهذه الطريقة ، ويتذكرون عشرات الحماقات التي ترتكبها تلك الكلاب تفوت عليهم صيدا مؤكدا !

هناك عشرات من الاسئلة ترود اذهان الناس ، ولم يكن أحد يجرؤ على طرحها الا في حالة واحدة حين يكون الكلب بصحبة حارس الميجر ، عند ذاك كان بعض الناس يتعمد اظهار اعجابه بالكلب ، ويفعل ذلك بصوت عال أو بحركات من التحبب أو بالسير مسافة طويلة قريبا من الكلب • وفي اللحظة المناسبة ، وكانت تحصل بشكل ما ، تطرح بعض الاسئلة : كيف استطاع الميجر تدريب الكلب بهذه الطريقة ؟ أين ينام ؟ ماذا يأكل ؟ وهل يفهم لغة أخرى غير لغة الميجر ؟ والحارس الذي كان يتبسط ، بعض الاحيان ، ويجيب عن الاسئلة التي يريد ، كان يضيف مزيدا من الغموض ، ويلقي ظلالا اضافية أقرب الى الخيال

ليدلل من خلالها على الذكاء الخارج الذى يتمتع به هذا المخلوق ، وكيف ان أحاديث طويلة ومستمرة تجرى بين الكلب والميجر ، وبينه وبين زوجة الميجر ، وانه نفسه اذا استطاع أن يفهم سبب بعض الحركات والمواقف الذكية للكلب فانه يستغرب أشياء أخرى كثيرة ! خاصة تلك الفترة الطويلة التى يتغيبها الكلب فى غرفة زوجة الميجر ، وكان يلاحظ ان قضايا شديدة الغموض تجرى أثناء ذلك !

ولما كان الميجر شخصية مرموقة شديدة الرهبة والغموض ، ويتمتع بقوى خارقة ، وهو الذى يتحكم بكل شىء ليس فى القرية وحدها ، وانما فى مناطق أخرى كثيرة نتيجة القوة العسكرية التى يقودها ، والتى تقوم فى أطراف القرية فى معسكر خاص بها ، فقد كان من عادته أن يستقبل زواره ، وهم من الشخصيات المرموقة فى القريه أو من الضيوف الذين يأتون اليها لامور طارئة تتعلق بالامن وقضايا الحدود وأمور أخرى غيرها . كان من عادة الميجر أن يستقبل هؤلاء بوجود ركس ، وكان كثيرا ما قطع الاحاديث التى يخوضون فيها ، وانصرف الى الحديث مع ركس ، أو الى تأنيبه وتهديده بطريقة مرضية ، حتى روى عن الميجر أنه شهر مسدسه أكثر من مرة كوسيلة للتهديد ، وفى تلك المرات كان يستعمل اللهجة المحلية التى تعلمها . وكثيرا ما فهمت تلك الكلمات أو عبارات التهديد على أكثر من وجه !

فقراء القرية واغنياؤها نظروا الى الميجر وكلبه نظرة خاصة ، فالفقراء الذين كانوا ينظرون خفية الى الميجر وكلبه وهم جلوس فى المقاهى الضيقة ، ويتذكرون القصص الكثيرة التى يسمعونها عن الاثنين ، كانوا يقولون : الجرو والذيب ، وينشغلون بما هم فيه لكى لا يضطروا لان يفعلوا مثلما يفعل الاغنياء : ان يقفوا باحترام ويلقوا التحية على الميجر ، وهو فى مشيته المتباهية سواء حين كان يلبس الشورت ويحمل بيده كرة صغيرة لتدريب الكلب ، أو حين يكون لابسا ملابسه البيضاء الانيقة ، لم يكن يحفل بتلك التحيات والانحناءات ، وكثيرا ما تجاهلها متظاهرا بالتفكير أو بمخاطبة الكلب .

والفقراء والاغنياء كانوا يبدون خوفهم اذا حصلت بعض الامور فى القرية ، لان الغضب والتفتيش لم يكن يوفر أحدا وفى اللحظات الاخيرة ، فى نهاية الحملات أو أثناء التحقيق ، كان يروق للميجر أن يصطحب معه ركس ، ركس الذى كان يتجول فى جميع الانحاء بحرية مطلقة ، ويعبث بكل شىء ، ولا يتردد فى أن يلمس بلسانه وجوه

الناس دون أن يكونوا قادرين على منعه أو صده ، كان جميع هؤلاء يتمنون لو أن الميجر ينظر اليهم نظرته الى ركس •

حديث القرية والميجر • وركس طويل •• طويل • ولعل أحدا لا يحب أن يذكر ذلك الحديث كله ، لكن جزءا منه أصبحت القرية كلها لا تتحدث الا عنه •

في أحد أيام الشتاء الباردة ، وكان الوقت عصرا والقرية تغرق في تلك الظلمة المبكرة • كانت أسراب الكلاب التي ولدت وعاشت في القرية منذ وقت طويل ، كانت تلك الكلاب ، وفي مثل هذا الوقت من السنة ، « تلاحق » بعضها ، واذا كان لمثل هذه العملية قوانينها الخاصة ، والتي تحددها الغريزة لايخطئها أي كلب ،فان ركس بطريقة ما ، لا تزال مجهولة حتى الآن ، كان ضمن الكلاب ، كان وحيدا بلا الميجر أو حارسه الخاص ، ودون أية حماية أو ميزة من اى نوع •

واذا كانت تلك الكلبة البائسة واقعة في دائرة الحصار التي تعرفها جميع الكلاب وتحافظ عليها باتقان مذهل ، فان ما حصل في ذلك الغروب الشتائي جزء من القانون وتأكيد له • فالكلاب القوية ، المجربة ، تتمتع بأولوية لا يمكن لغيرها أن يخترقها أو يتجاوزها •

لكن الذي حصل شيء آخر مختلف ، فحين ظهر ركس ولفت نظر جميع الناس ، وأخذ الاغنياء يتصرفون على طريقتهم ، فان الكلاب لم تلتفت اليه ولم تحس بوجوده • وكان من الممكن أن تفسح له مجالا في حلقة الحصار • لكن الذي حصل شيء مختلف ، اذ ما كاد يعدو مجنونا بتلك الحمى مخترقا الحصار حتى خيم جو من الذهول • نظرت الكلاب الى بعضها ونظرت اليه ، وفي لمح البصر أو بطريقة غامضة ، قبل أن يصل ، انقض عليه كلب واقتلع الجزء الاكبر من ظهره • وخلال لحظة واحدة ارتمى وهو يعوى بتلك الطريقة المستغيثة البائسة ، وواصلت الكلاب لعبتها ضمن قوانينها الخاصة •

أما ما حصل بعد ذلك فانه جزء من تفاصيل الحياة اليومية • صحيح ان الميجر أمر بقتل جميع الكلاب ، وجند من أجل ذلك عددا من الجنود النظاميين • لكن ركس آخر تم احضاره خلال فترة قصيرة ، وكان هذه المرة من النوع الكبير • وقد اختلف الناس كثيرا كثيرا في الدور الذي يقوم به ركس الجديد • قال بعض الناس انه كلب للحراسة ، وقال آخر انه لاقتفاء الاثر • وقال غيرهم انه كلب قوى

ويمكن أن يقتل ويسيطر على جميع الكلاب الاخرى ويتقدمها • اما حارس الميجر فقد قال كلمات غامضة لم يستطع الناس تفسيرها أبدا ، قال : ان زوجة الميجر هي التي اختارته •• وانه كلبها وليس كلب الميجر •

أما كلاب القرية فقد استمرت في التوالد من جديد واستمرت تنبح قبل رحيل الميجر وبعد رحيله • واما ركس الجديد فقد قتل بظروف غامضة ولم يعرف أحد من قتله أو لماذا قتل !

في ذلك اليوم الشتائي البارد ، ومثل عادتي كل خميس ، قررت أن أوقد حمام الحطب . انها نزوة لم أكف عن ممارستها منذ أيام بعيدة ، وهي تذكرني باشياء كثيرة : بأيام الصغر ، وايام بعيدة حين كنت شابا وأذهب مع مجموعة من الاصدقاء الى حمام السوق ، وتذكرني أيضا بروائح أحن اليها لاسباب غامضة !

هذه العادة التي داومت على ممارستها منذ وقت بعيد لا تأخذ أبعادها ولا تكتمل بالنسبة لى الا اذا قمت بكل شيء شخصيا : اكسر الحطب ، أجففه ، أجمع الاجزاء الصغيرة واجعلها كومة على شكل هرم لكي تسرى فيها النار بسرعة ، فاذا انتهت هذه المرحلة أنتقى عددا من الاغصان الجافة المتوسطة الحجم وأضعها متصالبة ومتباعدة بعض الشيء لكي تتخللها الريح وتساعد على سرعة اشتعالها . وفي المرحلة الاخيرة أضع قطع الحطب الكبيرة الثقيلة ، وحين تبدأ بالاشتعال أكون مطمئنا لكل شيء وأحس بدفء الماء قبل أن أغادر مكانى خلف الدار بتلك الزاوية الاثيرة فى الصالة الداخلية ، والتى أطل منها على كل شيء ، وأغرق فى التأمل والتذكر .. حتى يحين وقت الاستحمام !

قمت بهذه العمليات الطقوسية بتلذذ ، وكان اثنان من أولادى يراقبان ، وانا فى كل حركة أبدو دقيقا نشيطا ، وان تظاهرت باللامبالاة والآلية ،لكن فجأة ، وبعد أن اشتعلت النيران بزهو وبدأ نورها الاصفر المزرق يتصاعد ، سمعت صوتا لم ارتح اليه ، قلت بصوت فيه غضب :

ـ هذه المخلوقات التسعة لا تبنى أعشاشها الا فى أسوأ الاماكن .

وتراءت لى صورة الحمام وهى تبنى اعشاشها فى المداخن ، وكيف انها كلفتنى الكثير قبل اسابيع وانا انتزع بقايا العش من المدخنة ، وكيف اسمح للدخان بالحركة الطبيعية دون عوائق من هذا النوع الاحمق . قلت لنفسى « لا يمكن أن يكون العش وبقايا الخيوط والاغصان الصغيرة عائقا ، لابد أن تحترق فى هذا اللهب » .

تراجعت خطوة وتطلعت الى الاعلى لكى أتأكد من ان الدخان يصعد . رأيت سحابة قاتمة تتصاعد بقوة وانتظام . شعرت بالراحة ، وكدت

أن أنفض يدى كي أعود الى داخل البيت ، الى الزاوية ، لكني سمعت صوتا أقوى من المرة السابقة • توقفت • فركت يدى وأنا أفكر • تطلعت الى الاعلى مرة أخرى ، كان الدخان يتصاعد باستقامة أول الامر ثم يلتوى عندما تضربه الريح • تصورت أن غصنا جافا سقط من فوق ، وفى لحظة أخرى تراءت لى مجموعة من بيوض الحمام ، لكن صوتا حادا مكتوما ارتفع فجأة • تراجعت الى الخلف خطوة وامسكت لا شعوريا بالولدين فى حالة الدفاع عن النفس • وانتظرت •

في لحظة خاطفة مليئة بالصخب رأيت قطا مذعورا يندفع بقوة خارجا من النار • كانت لحظة مخيفة • ارتجفت ، واغمضت عينى • وحين فتحتهما مرة أخرى واستوعبت الحالة من جديد لم أصدق • لقد استغرق اعداد الحطب وايقاده وقتا ليس بالقصير ، وحين بدأت الاعواد الصغيرة بالاشتعال امتلأت رئتاى برائحة الدخان مما اضطرنى الى التراجع ومسحت عينى بظاهر يدى لازالة الدموع الصغيرة التى تكونت • أما حين بدأت الاغصان الكبيرة تشتعل فقد استغرق ذلك وقتا طويلا • قلت لنفسى وأنا استعيد هذه اللحظات بتساؤل وذهول : « لابد ان الخوف منع هذا القط من الخروج والهرب ، وبعد لحظات وأنا أفرك يدى لادفئهما قلت بصوت عال :

ـ عجيب أمر هذا القط ، لقد كان الدخان وحده كافيا لان يخنقه • فكيف احتمل النار ؟

تطلعت الى الوراء لارى أين أصبح ذلك القط ، حين رأيته يجلس على مسافة قريبة بدا لى منظره مرعبا : كان القسم الاكبر من جلده قد احترق ، وكان شارباه وقسم من وجهه قد تغير تماما وأصبح أقرب الى المنظر المضحك •

خلال لحظات ، وبعد أن استعاد القط أنفاسه ، وبعد أن مر بلسانه على بعض أجزاء من جسده المحروق ، رأيته ينتفض وينهض ، تصورت انه سيتوارى لكى يعالج نفسه ويتحمل الآلام بعيدا عن أعين البشر ، لكن فجأة اندفع بقوة ، أقوى من المرة الاولى ، باتجاه النار ، يريد أن يقتحمها لكي يرجع الى حيث كان • لم يكن يأبه بالنار أو الدخان ، ولم يأبه لوقوفنا نحن الثلاثة •

بشكل لا واع ، حملت حطبة طويلة ووضعتها حاجزا لامنعه من التقدم ، لكن بطريقة غاضبة شرسة تجاوز الحطبة الممدودة وحاول الاندفاع نحو النار بقوة أكبر ، وحاولت بدورى ، وبقسوة أكثر من السابق ، أن أمنعه • واستمرت هذه اللعبة القاسية فترة غير قصيرة ،

وفي كل مرة أستطيع ابعاده ، وبقسوة ، تحديا واصرارا على اقتحام النار . الى أن اقتحمها .

في وقت متأخر ، ونحن نشرب الشاى ، ونتابع أخبار التليفزيون مثل عادتنا كل يوم ، قال لى أحد الصغيرين الذى رأى كل شيء :

ـ هل تفعل كل القطط هكذا يا أبى ؟

نظرت اليه طويلا وأنا أتأمل الحزن العميق الذى يرقد فى عينيه وقلت :

ـ ليست القطط وحدها التي تفعل ذلك .. ان جميع الحيوانات تفعل ذلك أيضا .

وساد الصمت . مرت في رأسي أفكار عديدة ، وكنت أقول أشياء وأشياء ، لكن في لحظة وقد امتلأت بشعور المرارة والحقد وقلت بصوت هامس :

ـ على الانسان أن يتعلم ذلك جيدا .

نظر الى الصغير باستغراب وسأل :

ـ ماذا قلت يا أبى ؟

ـ لا شيء .. لا شيء .

وساد الصمت مرة أخرى ، ومدت يدى لاهرش رأسي لعلى أستطيع ازالة الاوساخ والافكار البائسة ، والتصرف بطريقة تخلصني من حياة المنفى !

يختلف الصيادون كثيرا حول الزاغ : هل يؤكل لحمه أو لا يؤكل ا
قال بعضهم انه من فصـــائل الغربان ، وما دامت الغـــربان تأكل الفطائس وتعيش فى المزابل ، فانها لا تستحق أن ينظـر اليهـا ، أما الطلقة فحرام بها . وقال غيرهم ، الزاغ طـير مهـاجر ، لا يأكل الا أطيب الحبوب ولا يشرب الا من أعذب الينابيع ، ولذلك فان لحمه طرى شهى ، ولا يمكن مقارنته بالغـــراب أبدا والطيـــور اذا تشـــابهت بأشـــكالها فانها تختلف بمرعاها ، والمرعى هو الذى يحدد ان كانت تؤكل أو لا تؤكل .

هذا الاختلاف الذى كثيرا ما يظهر بين الصيادين يجعلهم يطـوون الموضوع سريعا ليتحدثوا عن طيور أخرى ! لكن فى قرارة نفوســـهم تكمن الرغبة دائما لمعرفة هذا الطير .

الشبه بين الاثنين كبير ، فى الحجم ، فى الصـــوت ، فى طـريقة الطيران . أما ما يختلفان فيه ، فتلك الظلمة القاسية التى تميز الزاغ انه مثل الليل الداكن الشديد القسوة ، وزيادة على ذلك فان الزاغ لا يكون الا فى أسراب كبيرة ، واكثر ما يظهر فى رحلته اليومية خلال فصل الشتاء ، فى الصباح الباكر وقبيل الغروب .

والصيادون الذين تعودوا تجنبه بسبب الشئوم أو قسوة لحمـه ، كثيرا ما نظروا الى تلك الاسراب السوداء التى ترجع الصباحات الباكرة أو أمسيات الربيع الباردة ، نظرة مليئة بالحسرة والحقد ، وتكون هذه النظرة طاغية قوية حين تنعدم الطيور الاخرى أو حين تفيض الخيبة . وفى تلك الحالات فان الحماقة فى قلب الانســـان لابد أن تصـــبح شيطانا ملعونا راكضا فى كل الاتجاهات .

يختار بعض الصيادين السنونو هدفا ، لكن الســـنونو الذى عبر الدنيا كلها ليرجع الى عشه ، لا يعطى نفسه بسهولة ، اذ ما يكاد يمرق فى الهواء خالقا ذلك الحفيف الغاضب حتى ينعطف انعطـــافة حادة ، وكأنه توقف فجأة أو تذكر أنثاه وعشه ، ولابد أن يعـود ، وفى تلك الانخطافة السريعة الحادة تخيب طلقات الصيادين ويصيبهم الحقد ، فتشتعل السماء بطلقاتهم المجنونه الهاربة ، ومن بين الدخان الازرق ،

ورائحة البارود ، يجتاز السنونو الطلقات ليواصل رحلة السخرية ويصل أخيرا الى عشه !

حالة مثل هذه تولد جنونا أقرب الى سعار الكلاب ، حتى الصيادون الذين يتظاهرون بالوقار ، ويعرفون ما يؤكل من الطيور وما لا يؤكل ، تصيبهم الحمى ، فاذا أطبقت الظلمة وثقلت ، فانهم يستبدلون الوطواط بالسنونو وبالرعونة الماجنة نفسها تتصاعد الطلقات مرة أخرى ، ويظل الامر كذلك حتى تصبح بنات آوى وتبدأ الظلمة الكثيفة تغطى كل شيء، لتولد في الانسان خوفا غريزيا من كل ما حوله •

في احدى تلك المرات التي كانت الخيبة مثل ظل ثقيل تلازم ثلاثة من الصيادين ، بعد ساعات من تعب مضن وبعد طلقات بلهاء طارت في الهواء ثم تناثرت على الارض ، في احدى تلك المرات ، وقبل الغروب بقليل ، كانت أسراب الزاغ تعود من رحلتها اليومية ، كان منظرها من بعيد ، وهي تحوم على شكل نصف دائرة ، وتتقدم ببطء ، كان منظرها مثيرا محرضا ، والرجال الذين جلسوا في أماكن متباعدة يدخنون ويتأملون ويجترون خيبتهم ، كانوا ينظرون الى تلك الاسراب بحسرة وهي تدوم بعيدة أول الامر ثم وهي تسف وترتفع ، مع ذلك الدوي المكتوم الذي يملأ ساحة واسعة •

قال صياد لنفسه : غربان •

قال صياد آخر : عالية ولا تدركها الطلقة •

قال الثالث : ليقطع رأسي ولاصلب اذا لم أستطع أن أمرغ واحدا أو أكثر في التراب •

كانت الاسراب السوداء تتقدم مليئة بالفخامة والثقة ، والرجال الثلاثة ، كل من مكانه ، يتابع هذه الرحلة المذهلة ، وكانت الافكار تتضارب وتتراكض •

في لحظة ما •• أطلق أحد الصيادين •

اهتزت الاسراب وامتلأ الفضاء بصوتها الحاد وطغى على صوت الطلقة •

في اللحظة الاخرى بدا أحد الطيور يترنح في الهواء ، وفي اللحظة الثانية فقد توازنه وبدأ يعلو ويهبط في محاولة مليئة بالاصرار على أن يواصل رحلته • ارتفع اكثر من طيور السرب • ارتفع عاليا ومن ذلك الارتفاع ، وبدوي هائل ، سقط على الارض •

بدا الصياد الذي أطلق عليه النار فرحا وهو يركض لالتقاطه • كانت المسافة بعيدة ، تزيد على المئتي متر • في كل خطوة ، وفي كل

حركة كان فرحه يفيض ، ، كان يريد أن يكتشف هـــذا الطير • وفي كل لحظة ، ومع كل خطوة ، كان السرب ، الذى أجفل من المفاجأة أول الامر ، يتجمع ويتكاثف ، ثم بدأ بصراخ حاد يهبط الى الارض أو يحوم قريبا منها حول الطائر الذى سقط ، ومع اقتراب الصياد ، ومع خفوت حركة الطير ، كانت حالة من الجنون تملأ الدنيا •

في طريق العودة ، وبانعكاس أضواء السيارات الاخرى القادمة من الجهة الثانية ، كانت بقايا دم متحجر على الوجه وعلى اليـــدين ، وعلى الاذن اليمنى • وكان الصمت يخيم • أما عندما دخل الصـــيادون الثلاثة الى المدينة ، وبدأت الاضواء الوهاجة تملأ السيارة كلها ، فقد قال الذى يجلس في المقدمة :

ـ الله يلعنه من طير •• لا يساوى ثمن الطلقة !

قال السائق • وهو يتوقف فجأة :

ـ خفت هذه المرة •• خفت أن لا يعود أحدنا حيا •

قال الاول :

ـ قلت لكم : انه لا يؤكل • نعم لا يؤكل • انه غراب ، حتى لو كان يؤكل فانه شئوم !

أما الثالث فكان صامتا ، وكان يحس آلاما حادة في وجهه ويديه وأذنه • وفي لحظة ما أحس ان معدته تؤلمه وود لو يتقيأ !

كانت عيناه مليئتين بالقسوة ، حتى وهو يضحك ٠ أما اذا نظر الى أحد نظرة تأنيب أو سخرية فكان الخوف يمتزج برغبة الهـروب ، لان نظرة مثل هذه لابد أن تحمل الانتقام فى أبسط الحالات أو أحسنها ٠ وحين يكون مزاج البيك رائقا ، لابد أن تتبعهـا كلمـات أقرب الى الشتيمة ٠ كانوا يخافونه ويتحدثون كثيرا عن القوة الخـارقة التى يتصف بها ، والقسوة التى تميزه عن جميع الاغنيـاء فى المنطقة وفى المناطق الاخرى !!

كان الصغار يهربون حين يمر بسيارته السوداء ، وكانوا يفعلـون ذلك أيضا حين يكون راكبا حصانه متجولا فى المزارع التى يملكها ٠ أما الكبار فقد تعودوا أن يقدموا له كل فروض الطاعة بنوع من الاذعان يصل حدود الذل ٠ كانوا يفعلون ذلك بالوقوف اذا مرت سيارته ، يفعلون ذلك أيضا اذا مر راكبا حصانه ، وبعض الاقوياء والمحظوظين كان يتجرأ على سؤاله عن صحته وعن مزاجه ٠ واذا لم يبدأ الحديث ، لم يكن أحد يستطيع أن يفعل ذلك ٠ كانوا يقـولون « مزاج البيـك معكر » ، « البيك يفكر بقضايا كبيرة ولا يريد أن يفسـد أحد عليه تفكيره » وكانوا يقولون أشياء أخرى عن مشاغله الكثيرة فى العاصمة ، عن الخصوم الذين سيسقطون نتيجة موقفهم منه ، عن المهمات الكبيرة التى تنتظره !

وجوده فى الضيعة يغير كل شىء فيها : الوجوه والتصرفات ، وحتى الطقس ٠ ولفرط ما رويت القصص عنه أصبح أقرب الى الاسطورة ٠

كان يجىء الى الضيعة بين فترة واخرى ، وكان يجىء معه عدد من الاصدقاء ، ووراء السور العالى للقصر الكبير لم يكن أحد يعرف ما يجرى ٠ لكن الجميع يدرك أن شيئا خطيرا يجرى ٠

يرى سكان الضيعة ان البيك يملك عددا كبيرا من أسلحة الصيد ومعداته ٠ ويروى هؤلاء انهم لم يروه يستعمل بندقية واحدة مرتين ٠ أما عن مطاردته فى الصيد فقد أصبحت من الشهرة والمثل بحيث كانوا يقولون : « البيك لا يضرب الا فى اللحم » ، وهذا يدل على أنه لايخطىء أبدا !

كانت أيام الصيد تختلف باختلاف المواسم ، وكان الاصدقاء الذين يصطحبهم البيك في رحلاته يختلفون باختلاف هـذه المواسم . ولا يتذكر أحد من القرية ان صيادا من الذين جاءوا رجع بصيد أكثر من البيك . أما كيف كان يتصرف بهذا الصيد ، فما عدا احتفاظه ببعض الرموز التي كان يحاول أن يؤكد من خلالها مهارته وقـوته ، لم يكن ينظر الى الطرائد وانما يتركها للآخرين ، خاصة هؤلاء الذين جاءوا من العاصمة .. كان يحرص على أن يحتفظ بالاشياء الغـريبة : رءوس الوعول الكبيرة ، جلود الحيوانات القوية والنادرة .. وبعض الاحيان تلك الطيور التي لم يصد منها أحد غيره !

الخدم الذين يقيمون في القصر يؤكدون أن رءوس الوعول من الكثرة بحيث لا يستطيع أحد عدها ، وهؤلاء الخـدم يتكتمـون كثيرا في الحديث عما يحويه القصر ، كانوا يقولون بعض الكلمات التي تضيف غموضا الى الغموض الذى يشمل كل شيء وراء الاسوار : حياة البيك ، عدد بنادق الصيد ، عدد رءوس الوعول أو جلود الحيوانات .. وبعض الاشياء الاخرى !

كانت أيام الصيد تغير حياة القرية ، يترقب الناس عودة الموكب ويحرصون على معرفة ما جاء به والى أى مكان ذهب ومتى عاد ، حتى ان بعض الناس بلغ بهم حب الاستطلاع أن قاموا في ساعات الفجر الاولى وراقبوا من شبابيك البيوت أو من على ظهور الاسطحة الموكب : كيف تحرك ، متي .. وكم عدد السيارات ، وكيف أن سيارة البيك كانت في المقدمة تشق الطريق .. الخ .

ذات يوم جاءت الى الضيعة سيارة غريبة ، سيارة خضراء مثل تلك التى تستعمل عادة في نقل الخضر والفواكه ، لكنها جديدة ، وقد ركب في وسط المساحة المخصصة للحمولة كرسي فخم . كان الكرسي من تلك التي يستعملها الحلاقون ، يدور دورات كاملة ، ويبرق في ضـوء الشمس ، وقد ثبت بشكل جيد ..

وصلت السيارة وأثارت اهتماما واسعا ، ولم يستطع أحد أن يقدر كيف ستستعمل هذه السيارة أو لماذا . وحتى الخدم الذين أبدوا بعض المعرفة ، وكأنهم على علم سـابق بالامر ، لم يلبثوا أن أعلنـوا عجزهم عن فهم هذه المشكلة الجديدة ، وقالوا لابد وان البيك يحضر مفاجأة كبيرة للضيعة وسيكون لها دوى كبير !

بعد يومين وصل البيك ووصلت معه مجموعة من الاصدقاء .

واذا كان الصغار لا يشتركون في رحلات الصيد ، ولكن يتحدثون

عنها طويلا ، ويخترعون قصصا كثيرة لا يملون من روايتها مرة بعد أخرى ، فقد حدث شيء عجيب في هذه الرحلة .

طلب البيك أن يصطحب معه في السيارة الخضراء اثنين من الصغار للمساعدة ، ولا أعرف كيف وقع علي الاختيار .

انها المرة الاولى التى أخرج فيها للصيد . صحيح انني رافقت في بعض الرحلات خالي الى مسافات قريبة وتمتعت كثيرا بهذه الرحلات، وحاولت أن أقنعه ذات مرة بأن يسمح لي بطلقة واحدة ، لكن حين أكد لي أن كمية البارود والكبسولات التي معه لا تكفي لاكثر من ثلاث ضربات تنازلت وتوقعت أن أكبر بسرعة لكي افعل مثلما يفعل الكبار .

قبل أن تبدأ الرحلة نصبوا رشاشا على السيارة الخضراء ، كان البيك موجودا أثناء نصبه ، وقد أشرف بنفسه على كل شيء . كان شديد الفخر والتباهي ، مع أنه لم يتكلم الا كلمات قليلة . أما الحركة حوله ، فرغم النشاط الذى يميزها ، فقد كانت حركة أقرب الى الرصانة ومليئة بذلك التوقع الخائف .

في منتصف الليل تهيأت مجموعة من السيارات والبنادق ، وكانت وجهة الموكب الصحراء الغربية . ولان الرحلة بعيدة ومتعبة ، فقد ركب البيك في سيارة جيب ، وركب الآخرون سيارات مشابهة ، وكانت سيارة شحن كبيرة في مؤخرة الموكب ، أما السيارة الخضراء الجديدة المزهوة فقد كانت الثانية بعد سيارة البيك مباشرة .

بعد مسيرة يوم كامل وصل الموكب الى مضارب احد شيوخ القبائل، وكان حدثا كبيرا هز الصحراء بما تخلله من أهازيج وأفراح وولائم . وفي السيارة الخضراء ذات الحافة العالية بالشبك الذى يحيط بها نظر البيك بتلك الطريقة التى لم يغيرها ، كانت نظرته أقرب الى القسوة أو الاختبار ، وعندما أكلنا بعض الاشياء التى أعطيت لنا قال لنا مرافق البيك ان علينا أن نحضر أمشاط الرصاص للبيك ، ويجب أن نكون شديدى الانتباه والدقة ، ويجب أن نكون سريعين ، لان طبيعة الصيد وحاجة البيك الى مساعدين جيدين وصغار لا يأخذون الا مكانا صغيرا لا يعيق حركة الكرسي الدوار جعلته يختارنا . أما الكلمة الاخيرة فقد كانت :

ـ يجب أن لا تخافوا من الرصاص الذى يتطاير حولكم .. ولا تخافوا من الصوت أيضا .

كان البيك على الكرسي . فوقفنا كتلة من اللحم المكتنز . كان ثقيلا مليئا ، والكرسي يدور بتلك الطريقة المليئة بالفخامة وصوته

يئز مع كل حركة ٠

كل كلمات الارض لا تصف ما حصل : كان أزيز الرصـــاص وهو يتطاير يخلق مهرجانا مدويا مرعبا فى الصحراء الفسـيحة ٠٠ كانت قطعان الغزلان وهى تتراكض بذعر مجنون فى كل الاتجاهات تخلق حالة من الرعب ٠ أما البيك الذى كان يصرخ مع كل صلية رشاش فكان أقرب الى الثمل والجنون ٠ كانت صرخات فرحة مدوية ، وبين لحظة وأخرى ، بين صلية رشاش وأخرى ، نرفع رءوسنا لكى نتـــابع هذا المشهد الذى لا ينسى !

كانت مهمة البيك أن يطلق الرصاص ، أن يطلق بغزارة ٠ وكانت الغزلان وهي تتراكض حولنا مفزوعة وقفزاتها ترتفع الى مســـافات تتجاوز السيارة بعض الاحيان ، ثم وهى تتساقط ، أو وهى تركض بتلك الطريقة المضحكة ٠ وقد كسرت ارجلها وتناثرت احشاؤها ٠٠ وكانت الغزلان مثل انفجارات مرعبة فى هذا الفضاء الفسيح ٠

حين عدنا الى الضيعة قال أبى : « أنت صغير ولا تحتمل مثل هذا » وقالت أمى « ان عينا أصابتنى ولابد أن تفعل شيئا من أجل طرد هذه العين الشريرة » ٠ أما ما حصل لى بعد ذلك فلا أتذكره ، لكن أمى تروى أننى مت وعدت الى الحياة ، ولا أحد يعرف كيف حصل ذلك لان الحمى التي أصابتنى يمكن أن تقضى على رجل بالغ ٠

منذ ذلك اليوم لم أر البيك ، لان أبى أرسلنى الى المدينة بعد اعتلال صحتي ، وقال :

ـ القرية لا تناسب جسدك النحيـل ٠٠ ثم عليـك أن تواصــل دراستك عند عمك فى العاصمة ٠

لم أعد الى القرية ، وكانت تنتابنى أحزان لا حد لها اذا سمعت كلمة واحدة عن الصيد ، أما اذا رأيت غزالا ، حتى لو كان فى صـــورة ، فكانتحالة من المرض ثم الحمى تمزقنى ٠

ذات يوم ، بعد سنوات طويلة ، علقت جثة البيك فى الميدان الكبير ولا عرف هل حصل ذلك بسبب الغزلان ٠٠ أم البشر الذين قتلهم !

عصر اليوم التالى عثرت على سكني متواضع ، وفى ناحية بعيدة ، تكاد تكون ضاحية ، ودون منافشات طويلة ، وافقت على الشروط التى ارادتها العجوز الجديدة . وكانت شروطها بسيطة وواضحة : للغرفة نوعان من الاجرة ، الاول : أن يكون الساكن الجديد ثريا ويدفع كامل المبلغ الذى أريد ، والثانى : أن يكون الساكن فقيرا ومحتاجا ، وعندها يمكن ان تخفض الاجرة الى النصف ، شرط أن يكون ذلك الساكن مستعدا للقيام بمشوارين يوميا للكلب .

ولكي تخفف من تأثير الصدمه على قالت بلهجة حزينة :

ـ كما ترى .. أنا امرأة مسنة ولا أقوى على السير فترة طويلة أو بالسرعة التى يريدها « كروف » .

بعد تردد . وافقت .

انها تجربة مثيرة ومقلقة للغاية ، اذ كيف يمكن اقامة علاقة مع كلب متقدم فى السن ، يضاف الى ذلك خاصة انها المرة الاولى بالنسبة لى ، أنا الذى لم تكن له علاقة سابقة بالكلاب واكن لها فى أعماقى احتقارا كبيرا ؟

استغرق تدريب الكلب وقتا طويلا ، وتم على عدة مراحل . واذا كان الجنون لا يصيب البشر وحدهم وانما يمتد الى الحيوانات أيضا ، فان كروف ، وهو اسم الكلب ، كان يصاب بالجنون أيضا . فى حالات كثيرة تركبه حالة من العناد والخشونة لا تفيد معه كل أساليب الاغراء والتهديد ، واذا لم يعالج على الفور يمكن أن يرتكب حماقات كثيرة !

فى احدى نزهاتنا المشتركة ، وفى مرحلة التدريب الاولى ، بعد أن اصيب كروف بحالة من الهيجان الشديد ، وبعد أن أعيانا تماما ونحن نحاول تهدئته واسترضاءه صرخت العجوز :

ـ ميرو !

وبشكل مفاجيء أقرب الى الغموض تغير الكلب تماما ، اذ بدأ يتلفت ويتشمم الهواء وينظر فى كل الاتجاهات وقد زايله الغضب واصبح كلبا آخر .

قالت لى العجوز والكلب يسير بجانبنا ، دون سلسلة أو قيد :

ـ اذا أصيب بمثل هذه الحالة ، فما عليك الا أن تنادى باسم ميرو • ومسدت على ظهره وهو يتلفت ويتشمم الهواء •• وأضافت :

ـ أرجو الا تتبع هذه الطريقة الا فى حالة الضرورة القصوى ، لانها تتعبه !

رنت هذه الكلمة السـحرية فى أذنى وحرت كيف أفسرها ، في كل المرات التى حاولت أن استفسر عنها كانت العجوز بطريقة حزينة ومليئة بالغموض تهرب ، تغير الموضوع ، الى أن جاء ذلك اليوم ، دون سابق انذار • قالت :

ـ ميرو زوجى • زوجى الذى مات قبل سبع سنوات وكان يعطف على كروف ويحبه كثيرا • ومن غرائب الصدف أنه حين مات كان وحيدا مع كروف ، اذ جاءته أزمة قلبية ، وأنا خارج البيت • ولما عـدت وجدت كل شيء منتهيا ، ولم يكن كروف مستعدا لان يصدق ان ميرو قد انتهى ، ولقد فعل أشياء كثيرة لا يصدقها الانسـان حين جاء القس ، وحين جاء المشيعون • أما حين أرادوا أخذ ميرو للدفن ، فقد سبب لنا متاعب كثيرة •

قالت هذه الكلمات وصوتها ينخفض ويتهدج بعد كل كلمة ، ورأيت بعض الدموع تتساقط على خديها المتجعدين •• ولما هـدأت قليـلا ، أضافت :

ـ لا يزال كروف ينتظر عودة ميرو • نعم انه ينتظر ، ولا يستطيع أن ينام الا على رائحة ميرو : قطعة من ملابسه ، أداة من أدواته ، شيء من أشيائه ، وحين يجن ويصاب بحـالة من الكآبة ليس له الا دواء واحد : أن أنادى على ميرو ••

منذ ذلك اليوم تغير كثير من الاشياء بالنسبة لى وربما سـاعد فى هذا أن بعض الامور قد حدثت هذه الفترة بالذات • فليندا مثلما كانت غامضة فى حبها ، ظلت غامضة فى طـريقة هجرها ، وحتى الآن لم أعرف سببا لهذا الموقف الحاسم الشديد القسوة حين أبلغتنى بعد أول مرة ننام فيها معا أنها لن ترانى بعد ذلك اليوم أبدا • أما المرأةالعجوز وابنتها فقد تقابلنا ذات يوم مصادفة فى المخزن الكبير ، وبلهفة تقدمت لالقى عليهما التحية ولاتحدث معهما ، لكنهما سارتا بكبرياء ونظرتا الى باحتقار وكأنى حشرة مفزعة أتت من عالم آخر •

حين عدت الى غرفتى ذلك اليوم وجدت كروف ينتظـــرنى • كان يخرمش الباب وأنا أضع المفتاح بالقفل أما حين دخلت فقـد هجم على بقوة وحنان • وسمعت العجوز وهى تقف فى الزاوية تنظر باستغراب وتقول بصوت بطيء :

ـ هكذا كان يفعل حين كان ينتظر ميرو •

ولما سمع كروف اسم ميرو أصابته حالة من الفرح فتركنى وذهب نحو الباب •• ووقف هناك ينتظر !

كانت القصص وهي تتوالى تثير الدهشة وتبعث على التساؤل ، لانها لم ترو كما تروى قصص مثلها في مكان آخر ، وفي وقت آخر ، خاصة وان الجثة التي كانت مثل طوفان يملأ الغرفة ، ، خلفت خوفا سيطر على الجميع ، وان كان باشكال مختلفة . وهذا الخوف أصبح متحديا الى درجة لم يمكن أحدا ، في البداية ، من الخروج أو الحركة ، لكن احدى القصص التي رويت هزت المختار ، وبطريقة لا شعورية أقرب الى ما يفعله السائرون في نومهم أو المجانين ، نهض بشكل مفاجيء ، وبعصبية ظاهرة رفع الغطاء عن وجه عساف ، وسأل بتحد :

- أنت الذي عرفت الحيوانات والطيور ، وأنت الذي عشت للطيبة، لكن لم تعش فيها الا لتنام ساعات ثم تتركها الى البرية .. هل يمكن أن يكون الانسان بهذه الوحشية ، ويكون الطير أو الحيوان أحسن منه ؟

قال المختار هذه الكلمات بوضوح ، وان خالطه الحزن ، وانتظر ، وقد أدار رأسه قليلا ، كأنه يقرب أذنه من فم عساف ، ليسمع الجواب .

وحين خيم صمت طويل ، التفت المختار ووضع يده على كتفه وهزه هزا حنونا رقيقا كأنه يوقظه من النوم :

- عساف .. عساف .. هل سمعت ما أقول لك ؟

وتوالت كلمات الرجال قاسية مؤنبة :

- لا تكن مجنونا أيها الرجل . غطه .. وتعال الى هنا .

- أنت المختار .. ويجب أن تكون أعقل الجميع !

- لقد مات عساف يا رجل . لا تكابر ، ولا تطلب شيئا مستحيلا !

وبالعصبية نفسها التي بدا بها المختار ، تابع وكأنه لم يسمع كلمة من الكلمات التي قيلت :

- عساف .. عساف لماذا لا تجيب ؟

كان جو الغرفة جوا ثقيلا تربض فيه رائحة الموت ، واذا كان الناس قادرين على التصرف في أوقات كثيرة بتعقل وحكمة ، فانهم في لحظات مثل هذه يفقدون هذه القدرة ، ويتحولون الى قطيع يمكن أن يقودهم مجنون . حتى الكلمات القاسية ، حتى القبضات القوية وهي تمسك

المختار من تحت آبطيه لترفعه وتعيده الى حيث كان ، لا تمنعه من أن يواصل هذه اللعبة المدمرة •

أوقفوه ، بقوة • وقف لحظة ••ثم سقط ، حملوه الى مكانه ، لكن ما كاد يستقر لحظة حتى نهض بقوة أكبر وهجم من جديد على عساف، وحين صرخ به أحد المسنين :

ـ اذا ظللت بهذا الشكل فسوف نتركك ونمشي••وأنت تعرف معنى أن يبقى الانسان وحيدا مع ميت ، لابد أن يجن أو أن يموت مثله !

ومثلما تهبط النيازك من السماء ، فجأة التفت المختار ، بعد أن أبعد الايدى المحيطة ، وزم أصابعه وهز يده دلالة أن ينتظروا ، ولما خيم الصمت من جديد ، قال بطريقة هادئة موزونة :

ـ يجب أن يسمع عساف كل كلمة تقولونها ، لانه بهذه الطريقة وحدها يتأكد اذا كان أهل الطيبة قد أصبحوا بشرا ويستحقون الحياة •• أم أنهم لا يزالون حمقى كما كانوا من قبل !

وقبل أن يسألوه ، ولكى تستقر الكلمات فى عقولهم قال بحدة :

ـ يجب أن نضع وراء ظهره مسانك ، ونجعله ينظر الينا ، لكى يعرف من يقول الحقيقة ومن يكذب •

قال أحد المسنين وقد مل هذا الالحاح من الجنون المفاجىء الذى ركب المختار :

ـ للموتى حرمتهم يا رجل ، ويجب أن نرعى هذه الحرمة حتى النهاية • أما أن نمثل بهم ، أن نمازحهم ، أن نلعب معهم كالاطفال ، فان هذا يسىء للموتى ويخالف الدين •

وبطريقة تداخل فيها المكر والذكاء والقسوة • واتفقوا على حل وسط : أن يعود المختار الى حيث كان ، وبالمقابل أن يرفعوا الغطاء عن وجه عساف • وقال أحد الضيوف ، وقد شعر أن معدته تكاد تخرج من حلقه ، وامتلأ صوته بحشرجة :

ـ سامحونا يا جماعة •• لقد كنا نحن السبب فى كل ما جرى ، ولولا هذه الرحلة المشئومة لما حصل الذى حصل •

قال أحد المسنين ينهى الخلاف ويخلق جوا جديدا :

ـ الاعمار ، يا ولدى بيد الله •• فاذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون !

قال رجل آخر :

ـ عساف كان يريد أن يموت بهذه الطريقة ، كان يردد أمام الجميع:

ـ أريد أن أموت في البريه ، في الصيد ، كلبي معي وبندقيتي على كتفي أو بيدي !
ورغم أن بعض المسنين واذكياء الطيبة ساقوا الحديث بعيدا ، الا انه كان يعود ، دون رغبة أو شعور من أحد ، الى الصيد ، والى الطيور والحيوانات ، وفي كل مرة يذكر شيء عن الكلاب أو الغزلان كان المختار يلتفت الى عساف ، ويقول بصوت جارح :
ـ انت الذي كنت تقول ذلك ، اسمع ، افهم الآن ، بعد أن تركت الدنيا ، يقولون الكلام نفسه ..
ويتوقف قليلا ، يمتلىء وجهه بابتسامة ساخرة ويتابع :
ـ كانوا يقولون عساف مجنون . عساف صايع ، عساف لا يحب العمل . والآن يرددون الكلمات نفسها التي كنت تقولها !
فاذا سمع أحدا ينهره أو يطلب منه الصمت يهز رأسه دلالة الموافقة والاستسلام ويقول :
ـ الآن يمكن أن تقولوا كل شيء .. تفضلوا !
انها ليلة عجيبة من ليالي الطيبة . واذا كان أهل الطيبة قد تعودوا على التسامح فان فيهم قسوة تطفو فجأة في دمائهم وتجعلهم أميل الى الغضب . ولو أن أحدا فعل تلك الليلة ما فعله المختار لما انتهت الامور بسلام ، لكن الفاجعة التي حلت بالمختار . بفقد الابن الوحيد الذي بقي له ، في الحرب الاخيرة ، ثم بذلك البحث المضني بين الطيبة والمدينة ليتأكد من حياته أو موته ، والضباط في المدينة لا يقولون له كلمة تريحه ، وانما الجواب الذي ظلوا يرددونه دون تعب ودون تغيير : « مفقود » ثم وفاة زوجته المفاجىء اثناء احدى رحلات بحثه ، والتي كانت تستمر أياما ، وعودته الى الطيبة ليجد البيت خاليا وليقول له الناس بطريقة غامضة أول الامر ، ثم جارحة : « لقد أخذ الله وديعته » ـ أن هذه الفاجعة التي نزلت بالمختار جعلته في كثير من الاحيان بين الصحو والجنون . وجعلت تصرفاته تتسم بذلك المقدار الكبير من الغرابة . لذلك لم يفاجأ أهل الطيبة من تصرفاته تلك الليلة لم يقدروا أن تصل الى هذا الحد من القسوة والتحدي ، لان الكلمة التي ظل يرددها دون انقطاع ، طوال الفترة السابقة كلها : « لا أصدق لا يمكن أن يحدث كل هذا دفعة واحدة » .
والطيبة التي تعرف كيف تقسو وكيف تتحمل القسوة ، تعرف أيضا كيف تسرف في الحنان ولا تتخلى عن أبنائها ، واذا وجد من همس بأن المختار ، بوضعه الصحي الجديد ، لم يعد قادرا على أن يقوم

بواجبه ، وعلى الجهة الشرقية في الضيعة ، أن تبحث عن مختار آخر ، فان هذا الهمس قوبل بالازدراء والرفض ولم يؤد أية نتيجة ، لان الكلمة الوحيدة التي كانت تتردد دون انقطاع : الطيبة لها وجه واحد وليس لها وجهان ، كما انها لن تتخلى عن أبنائها حين يسقطون ، أو حين يضيعون • واذا كان الناس في الضيع والقرى الاخرى يفعلون ذلك فان الطيبة لم تتعلمه ولا تريد أن تتعلمه !

تلك القصص اذا كانت قد أثرت في المختار بشكل ظاهر ، فانها لم تترك أحدا الا وحركت في أعماقه موجة عاتية من التساؤلات والحزن ، وجعلت الامور تبدو ، في لحظات كثيرة ، أقرب الى الوصف الممزق : ماذا تعني الحياة وماذا يعني الموت ؟ ولماذا تنتهي حياة المخلوقات بهذه الطريقة العاتية ؟ وماذا لو أصبح الانسان أكثر صدقا وبساطة وتخلى عن كثير من الاشياء التي تحوله الى مخلوق لا يعرف سوى جمع الاشياء ثم تدميرها ؟ لماذا تصمت المدينة أيام المحل الذى يتآكل الاحشاء وتتذكر أيام لا يفيد التذكر ؟

أسئلة مثل هذه وعشرات غيرها مرت في أذهان البشر المحصورين في تلك الغرفة • صحيح انها غرفة واسعة ، تدل على أن المختار كان يملك شيئا ذات يوم ، لكن الاهمال الذى بدا في الكثير من المظاهر ، ثم الغبار الذى تعشق الغرفة جيدا ، حتى أصبح جزءا منها ، والفوضى الظاهرة في كل شيء ، مع قليل من القذارة الجديدة – ان هذه الامور كلها تجعل النفس ضيقا ، وتبعث شعورا قويا بالانتهاء ، فاذا أضيف اليها وجود عساف ، بوجهه الجلمد المتقلص ، وعينيه المطفأتين ، وابتسامته الرخوة الساخرة ، فحينئذ لا يمكن لاحد أن يشعر بالامن ، حتى اشجع الرجال وأكثرهم صلابة ، ولذلك حين اقترح أحد المسنين فتح النافذة القبلية ، صرخ المختار بحدة :

– أتركوا كل شيء كما هو •

هل هي الذكرى أو الرغبة بالتحدى ؟ هل هو الاصرار على السير في الطريق الى نهايته حتى لو كان الموت ؟

يمكن أن تفسر الامور على كل الوجوه ، ويمكن أن يكون لكل وجه حقيقته الخاصة به ، ويكون صحيحا • فما دامت ارادة البشر الموجودين في تلك الغرفة قد سقطت في دوامة الحزن ، ولم يعد أحد قادرا على أن يتحدى المختار أو يرفض له طلبا ، فان أقصى ما يستطاع في مثل تلك الحالات ، الاحتيال عليه ومعاملته كطفل •

ومع القصص والذكريات تنفجر الآن الاحزان والمشاعر • وظلت

كلمات المختار وتعليقاته ، والتى بدت في لحظات كثيرة ، أقرب الى الملاهة ، تطغي على كل شيء وتعطيه الطابع الذى يريد ، فحين يكون الغزال الضحية يصرخ بذعر :

ـ هذا ما قاله عساف • وعساف لم يصد غزالا الا مرة واحدة في حياته •• وبعد أن يتوقف قليلا يضيف : ألم تسمعوا عساف كيف كان يتحدث عن الغزلان ؟ كان دائما يردد قولا لا أنساه أبدا : الغزلان تبكي •• تبكي دائما وهى تموت •• ايا كانت الطريقة التى تموت بها ولذلك لم يذهب عساف الى صيد الغزلان مثلما كان يفعل الشباب الاغرار وبعض القساة الذين لا قلوب لهم •

واذا جاء ذكر الكلاب أو أية حيوانات أخرى ، كان المختار يهز رأسه هزات طويلة مستمرة مثل بندول الساعة ، فاذا وجد ما يقوله لا يتردد لحظة واحدة •

هكذا كانت أطول ليلة فى تاريخ الطيبة • واذا كان الشباب ، بدوافع غامضة متداخلة ، بدوا أقل اعتراضا وضيقا بتصرفات المختار فان المسنين ما كادوا يدارون الامر بشكل أو آخر حتى انبثق الفجر ، وعندما قال العم زكو الذى بنى معظم بيوت الطيبة :

ـ أتعرفون •• ؟

قالها بصوت شديد النبرات ، ليبدأ رحلة جديدة ، وحين تطلعت اليه العيون ، تابع باللهجة نفسها :

ـ أكرام الميت بدفنه ، ويجب أن يدفن عساف مع أول النهار •

وبحركة فيها الكثير من المهارة أشار العم زكو الى مجموعة من الشباب أن ينهضوا ويذهبوا معه لاعداد القبر • وحين قام ، قال كأنه يصدر بكلمات :

ـ جهزوه بسرعة •• وحين ينتهى القبر أرسل اليكم لتأتوا به !

قال المختار بطريقة لا تقبل المناقشة أبدا :
ـ عساف يدفن هكذا ..
ولما بدأ المسنون يحاورونه ، هز رأسه ويده اليسرى دلالة أنه لن يسمع ولن يفهم ما سوف يقال ، وحين ألحوا صرخ :
ـ هكذا قال لي الجنود والضباط حين سألتهم عن ابني وعن الجنود الآخرين الذى يقتلون في المعركة . انهم يدفنونهم بثيابهم ، لان هذه الثياب أقدس من جميع خام المدينة .
وبطريقة هادئة أضاف :
ـ ثم أنتم تعرفون : الطيبة لا تجد من الخام ما يستر الاحياء فكيف تستطيع في سنة مثل هذه أن تستر الموتى ؟
وعاد الى لهجة الحسم :
ـ عساف لم يمت موتا طبيعيا . مات من أجل الطيبة ، مات شهيدا وما دام في حياته رضى أن يكون بهذا الشكل ، فانه لن يرضى أن يغير شكله في اللحظة الاخيرة !
وبتسليم أقرب الى المرارة ، ولان الامر أصبح أكثر تعقيدا مما تصور الكثيرون ، لقد رضخوا لما أراده المختار . كان لدى الجميع شعور قوى بضرورة انهاء هذه المشكلة كيفما كانت النهاية ، لان مجرد بقائها سيؤدى الى تعقيدات لا يمكن أن يحلها العقلاء أو المجانين !
واذا كانت تلك الليلة من الليالى العجيبة في حياة الطيبة ، فان ما تلاها لا يقل عجبا عن ذلك .
فما كادت الشمس ترتفع ذراعا ، وبعد أن أرسل العم زكو رسلا عديدين ، وأكد هؤلاء ان القبر أصبح جاهزا ، والان الامر لا يحتمل التأخير ، ظل المختار يرفض باصرار يقرب حد الاحتقار ويؤكد أن الوقت ليس مناسبا . وبعد ذلك الالحاح جاء العم زكو بنفسه ،وبطريقة تمتزج فيها العصبية بالمكر ارتفع صوته مهددا رافضا أن يتدخل أحد في هذا الامر الذى لا يعرفه غيره ، صرخ المختار وكأنه يتأثر من كل شيء :
ـ اسمعوا يا أهل الطيبة : عساف ليس لصا ولا قاطع طريق لكي

تتستروا عليه وتدفنوه في الظلام : لقد مات من أجلكم ، وما دام الامر حصل بهذا الشكل ، ورأيت ذلك بعيني ، فيجب أن يدفن عندما ترتفع الشمس في السماء ، وعندما يعرف أهل الطيبة !

وحين أكد الجميع ان الطيبة تعرف كل شيء ، وانها تنتظر اللحظة التي يخرج فيها جثمان عساف لكي يشترك الجميع في تشييعه ، قال المختار :

ـ اتركوه يراكم كلكم • انه يحب كل واحد منكم ، ويريد أن يرى ويسمع كل شيء بنفسه !

في وقت ما، ولا يعرف اذا كان الوقت الذي أراده المختار أو الذي أراده الآخرون ، حمل عساف • خرج من المضافة محمولا على نعش وملفوفا بقماش اسود ، ويؤكد جميع من رأى المشهد أن عساف لم يكن محمولا وانما كان يطير • كان طائرا ينتقل من مكان لآخر أسرع مما كان يفعل الطير • لم يبق أحد من الطيبة الا وخرج لتشييع عساف ، ولم يبق أحد الا وحاول أن يفعل شيئا • الذين لم يستطيعوا المشاركة في حمله ، ركضوا الى جانب النعش ، والذين لم يستطيعوا الامرين معا ، فقد حاولوا أن يفعلوا شيئا آخر • والطيبة التي خزنت منذ وقت بعيد أسلحة كثيرة ، وكان الكبار يعتزون وهم يتحدثون عن هذه الاسلحة ، كيف حصلوا عليها وكم دفعوا ثمنا لها واية مزايا رائعة لها عندما حاربوا بها ، فان معظم هذه الاسلحة قد خرجت دون اتفاق سابق ، ودون ترتيب مقصود ، والذين أحسوا بخطأهم حين جاءوا دون سلاح ما لبثوا أن بعثوا من أحضر لهم السلاح • بعثوا بابنائهم ، أو باقربائهم • لحظات فترة قصيرة بدت الطيبة غريبة المنظر واشبه ما تكون لحظة من لحظات الحياة الكبرى ، اللحظة التي واجهت فيها العدو قبل عشر سنين ، ومنعته أن يتقدم ، بعد أن فقد الكثير من جنوده •

ومن بيت المختار حتى المقبرة ، كانت أصوات عمياء وأيد عمياء هي التي تحرك هذا الموكب الذي لم تر الطيبة مثيلا له • والمختار الذي كان يحتفظ ببيته بثلاث قطع من السلاح تخلى عنها كلها وأخذ بندقية عساف القديمة معه • كان وهو يملأها بين لحظة وأخرى ، كان وهو يطلق بين لحظة وأخرى • كأنه في عرس • كانت أصوات الطلقات تملأ الفضاء ، وحتى الذين لم يملكوا من الطلقات الا القليل ، وحاولوا الاحتفاظ بقسم منها لاوقات أخرى ، فقد عوضوا عن ذلك كله بالاصوات المفاجئة العمياء الحادة التي يطلقونها ، كانوا يصرخون

صرخات لها وقع التحدى ، وان كانت دون معنى أغلب الاحيان ، أو متداخلة الجرس بحيث انها لا تفهم ، وترافق الصرخات الايدى وهى تنقل النعش بسرعة وتدفعه بقوة ، تريده أن يسبح فى الفضاء ، أن يطير ٠

رغم السرعة والمهارة ، فان الموكب تأخر كثيرا حين وصل الى التل الجنوبى ، لانه مر فى أحياء لم يقدر أحد أن يمر فيها ، ولان عقولا مجنونة دفعته فى تلك المسالك ، وكانها تريده أن يرى كل شىء فى الطيبة قبل أن يغادرها ، قبل أن يغيب تحت التراب ٠ وخلال ساعة أو أكثر قليلا ، ومع الزغاريد وطلقات الرصاص والركض المجنون ، ولا يعرف أية أشياء أخرى ، وصل عساف الى حيث يجب أن يدفن ٠

وهناك ٠٠ فى بداية المقبرة على السفح الجنوبى ، كانت جموع كثيرة تنتظر ٠ لا يدرى أحد كيف تجمعت هذه الجموع ومَن أين أتت ٠ كانت من القرى المجاورة ، وحتى من القرى البعيدة ، وقد جاء هؤلاء بوسائط نقل عجيبة ، بالباصات الكبيرة ، بالشحنات ، حتى أطفال القرى المجاورة جاءوا على الدواب أو على الدراجات ٠ واذا كانت هذه الجموع قد انتظرت عند المقبرة ، فلان أحدا من أهل الطيبة لم يعرف كيف تسير الجنازة أو الى أين ذهبت ، وقد اقترح أحد وجوه القرى القريبة أن يكون اللقاء عند المقبرة ٠ وبهذه الطريقة بدأت أفواج البشر والاليات والدواب ، وكأن يدا سحرية هائلة الحجم جمعت كل هؤلاء ثم بعثرتهم بهذا الشكل ٠

وما كادت الجنازة تهدأ وتبدأ صعود السفح ، حتى انفجر الصوت فجأة : لا اله الا الله ٠٠ لا اله الا الله ٠٠ لا اله الا الله ٠ وبسرعة انفجار الصوت نفسه كانت تلك الركضة السريعة الاقرب الى الرقص وهى تتجه للمشاركة فى حمل النعش ٠ لقد أدى الامر الى ما يشبه الاضطراب والغموض ، اذ ما كادت الايدى الجديدة تتلقى عساف ، ودون تقدير سابق أو اعتبار للوزن وطريقة الحمل ، بدأ النعش يموج فى حركة نصف دائرية سريعة ٠ ولقد قال الكثيرون ، انهم شاهدوا النعش يطير ، ولم تكن أية يد تحمله أو تمسه ٠ ورغم ان المسافة لا تتجاوز المائتى متر بين بداية السفح والقبر المفتوح فقد احتمل وصول عساف وقتا طويلا ٠

وليس رجال الطيبة وحدهم يتصفون بذلك المقدار الكبير من الجنون والتسامح والحنان والقسوة والقدرة على التحدى والغضب ٠٠ ان نساء الطيبة كذلك ٠

وحتى وقت متأخر ، لا يدرى أحد كيف حصل الامر ؟
ماكاد عساف يصل المقبرة،حتى كانت نساء الطيبة قد تهيأن لاستقبال يليق بهذا الرجل • ودون أن تبدو أية مظاهر خاصة أو مختلفة ، وما كاد النعش يقترب ، ثم يوضع على الارض ، تمهيـداً للحده ، حتى تجمعت النسوة على شكل دائرة ، وبطريقة تختلط فيها كل مظاهر الحزن والفرح واللذة والجنون والغضب ، وبحركات ادائية لا يتقنها الا من احترفها لفرط ما تعود عليها ، بدأت الرقصة منتظمة موزونة ، وكانت الصرخات ترافقها وتعطيها انتظاما ادق ووزنا أوضـــح • ومع الحركات والصرخات ، كان الرجال يمارسون عملهم بنوع من الاتزان المفرط ، وكان العم زكو سلطانا فى تلك اللحظات ، فحين يطلب رفع عساف من التابوت ، ومساعدته لانزاله الى القبر ، كان يفعـل ذلك باتقان شديد ، والرجال الذين يقومون بما يطلب منهم ، كانت تبـدو حركتهم مضطربة بعض الشيء ، لكن لا تلبث أن تستقيم وتتوازن ، ثم حين وضع عساف في القبر ، بدأت اشارات العم زكو واضـحة حين طلب مناولته الحجارة الرقيقة المستطيلة التى تستعمل غطاء ، ثم تلك الحجارة الصغيرة التى تسد الثقب ، ثم التأكد من الزوايا والاطراف • حتى اذا انتهى من أداء هذه الاعمال بمهارة ، وكان الرجال يستجيبون بخفة وقد ملأهم الصمت ، كانت حلقة النساء تزداد عنفـا وسرعة ، وبلغت فى احدى اللحظات مرحلة من الانفعـال الى درجة أن بعض النساء رمين الاغطية عن الرؤوس ، وأخريات أمسكن باغطية خاصـة وبدأن نوعا من الرقص الهستيرى ، وبين فترة وأخرى ينفجر صـوت يعطى لهذه الحركات وقعا جديدا ، ويجعلها أكثر اشتعالا •
كل ذلك كان يجرى دون اعتراض من الرجال أو تدخل ، وهذا الامر الذى لم تفعله الطيبة الا قبل عشر سنوات ، حين وقع بعض الرجال ضحايا القوات الاجنبية ، وجاءوا بهم الى الطيبـة لكى يدفنـوا هنا ، اذا كان هذا قد جرى لاولئك الرجال فى وقت بعيد ، فالطيبـة التى اكتسبت جزءا من عادات البدو ، كانت تكره أن تعبر عن حزنها بهذه الطريقة ، لكن حين يبلغ الحزن درجة تفوق احتمال الناس وقدرتهم ، فانها تفعل كل ما تريد • والطيبة التى كانت ترى كثيرا من الفجاجة قد تصل حدا لا ترضاه ، تعودت أن تمنع النساء من الخروج الى المقابر أو المشاركة فى عمليات الدفن ، وكانت تريد أن تنفض يدها بأسرع الطرق من « الوديعة التى اختارها الله » • لكن الطيبة ذاتها لا تستطيع أن تفعل كل شيء نتيجة رغبة بعض الناس الموزونين المتعلمين ، انها فى

احيان كثيرة .تفعل ما تعتبره ضروريا ، وما تعتبره وحده الذى ينقذها مما هو أدهى وأصعب • ولذلك فحين رأى الرجال النسوة ، مثل كتلة سوداء في منتصف السفح فقد داخلهم شعور قوى بالحزن ، وأحسوا أن عساف كان أكثر من مجرد رجل من الرجال الذين كثيرا ما وارت الطيبة أجسادهم تحت الارض • بدا لهم كبيرا ، مهما ، وبدا ان أحدا لا يصدق ولا يطيق أن يذهب بهذه السرعة وبهذه الطريقة ، ولذلك ومع كل خطوة ، وحتى حفنات التراب الاخيرة ، والتى شارك فى القائها جميع الموجودين ، بمن فيهم الاطفال الصغار ، عدا تلك المجموعة الصغيرة من النسوة اللواتي ظلت في حالة من الهياج والدوران ، ولم يفطن الى ما كان يجرى حولهن ـ حتى حفنات التراب الاخيرة كانت مثل سكاكين صغيرة تنغرز فى القلب • وملأ الصمت المكان • أما الخطوات الصغيرة المثقلة ، وهى تنزلق عن السفح ، فقد بدت وهى تنتزع نفسها من الارض بقوة ، وكأنها لا تقوى على فعل أى شيء • وحين نزل الرجال ، وأصبحوا قريبين من الباصات والشاحنات ، لم يكن يرى فى منتصف السفح سوى العم زكو والى جانبه أحد الرعاة يمسك شبابته بقوة ، وكانت ملامحه شديدة الصلابة والخشونة ، ونظراته بعيدة • وكأنه يستعيد صوتا معينا من جبال الطيبة وأوديتها ومن الصحراء أيضا • كان الراعى ينتظر ليبدأ شيئا ما ، وحول الاثنين بعض الصبية ومجموعة من النساء • كانت المجموعة تصغر وتتلاشى دقيقة بعد أخرى • نتيجة الاعياء والسقوط على الارض ، وكانت حركات الجميع مليئة بالعصبية ، وكأنها انتقام من كل شيء ، وكانت النساء واحدة بعد أخرى • نتيجة الارهاق الذى وصل حد السقوط ، تدفن وجهها في التراب وتغرق فى موجة عاتية من البكاء والصراخ ، وبدا أن الطيبة •• رجالا ونساء تبكى نفسها بشكل لم تفعله من قبل ، لكن الى جانب البكاء كان الغضب •

اذ ما كاد المختار يقترح ـ وكان شديد الاتزان ، ويبدو أن حالة عالية من الصفاء سيطرت عليه فى تلك اللحظة ـ أن يذهب عدد من الناس مباشرة من المقبرة الى المدينة ، لكى يبحث موضوع السد للمرة الاخيرة ، ماكاد المختار ينتهى من كلامه حتى كانت الاستجابة اكبر وأكثر مما تصور أى انسان ، ولم يقتصر الامر على أهل الطيبة وحدهم • اذ أبدى عدد كبير من رجال القرى المجاورة رغبتهم فى أن يذهبوا معهم الى المدينة •

خلال دقائق ، وبعد أن أعاد الرجال الاسلحة ، مع أبنائهم وأقاربهم

الى البيوت ، وقالوا لهم بوضوح : « انتبهوا وأنتم تحملونها ، ثم يجب أن تنظف .. لاننا قد نحتاج اليهما في وقت قريب » .. بعد ذلك بدأت السيارات ، الواحدة بعد الاخرى ، بأشكالها الكبيرة والصغيرة ، القديمة المتعبة والتى لا تزال تتحرك دون دفع أو انتظار ، تأخذ الطريق المتجه الى المدينة ، وبدت مثل شريط شديد النتوء وغريب الملامح ، وكان الرجال فى أغلب السيارات صامتين . أما حين تجاوزوا الطيبة ، وقبل أن يتركوا الطريق الترابى الصعب ليدخلوا فى الطريق الاسفلتى العريض ، فقد التفت اكثر الناس الى المكان الذى أشـــار اليه أهل الطيبة ، وهم يقولون : « من هنا الطريق الذى يوصل الى المكان الذى يبنى فيه السد » . أما المختار ، الذى ظل صامتا طوال الوقت ، فقد سمعه الذى يجلس الى جانبه يقول :

ـ لن أعود الى الطيبة مرة أخرى الا لاحمل بندقية وأبقى فى الجبل، ومن هناك ومع الاخرين سوف نعمل شيئا كثيرا غير الصيد . أما اذا واتفقوا على بناء السد فسوف أعود على ظهر بلدوزر لكى يبدأ العمل ، ولكى تبدأ الطيبةتعرف معنى الحياة بدل هذا الموت الذى تعيشه كل يوم .

وخيم الصمت من جديد .. ولم يكن يسمع سوى دوى السيارات على الطريق الاسفلتى وهى تتجه الى المدينة .

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٨٦/٤٧١٠
الترقيم الدولى ٩ - ٢٥٧ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

هذه الرواية

« الرواية الأولى التى تنشر فى القاهرة للروائى العربى الكبير عبد الرحمن منيف ، صاحب « الأشجار واغتيال مرزوق » و« شرق المتوسط » و« سباق المسافات الطويلة » و«مدن الملح » ..

و« النهايات » هى رواية البادية بامتياز : رواية الصح... والمواسم والخصب والمطر والجفاف والقحط والحيـ... والطير ..

قال عساف لأهل الطيبة : لم يخلق الصيد للأغنياء للذين يقتلهم الزهق والشبع .. لقد خلق للفقراء ، لل... لايملكون قوت يومهم ..

لكن أهل الطيبة لم يستمعوا لهذه الكلمات ، غا... الصدق ، وأصروا على أن يتلهوا بالصيد .. فخرج معـ... ليموت دونهم ! .. » .